من نجوم الإسلام
(١٤)

خالد بن الوليد

سيف الله وسيف رسوله

تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٣

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية
من دار البشير بجدة
جدة: ٢١٤٦٣ - ص.ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثنا الفتى صادق أمين قال:

ـ خرجنا في نزهة مع مدرّس التاريخ. . . كان الجوُّ صحواً، وكانت الأرض بساطاً أخضر يسرُّ الناظرين، ويبعث فيهم الحيوية والنشاط، ولا عجب، فنحن في أيام الربيع، وما أدراك ما يوم الربيع.

كنا نمرح ونلعب، ويطارد بعضنا بعضنا الآخر، أمّا المدرّس فقد انتحى ناحية في البستان البديع التنسيق، وأخرج من محفظته التي لا تفارقه، كتاباً، وأخذ يلتهمه قراءة، كما كنّا نحن التلاميذ، نلتهم الفواكه التي كانت معنا.

اقتربت من الأستاذ، واستأذنته في الجلوس إليه، والإفادة من علمه الغزير، فرحّب بي قائلاً:

ـ أهلاً بك يا صادق، تفضل اجلس.

وأفسح لي مكاناً من السجادة التي كان يجلس عليها، فجلست بلصقه، وأنا أشكره، ثم سألته عن الكتاب الذي يقرؤه، وعن الموضوعات التي يبحثها، فقال:

ـ إنه كتاب في التاريخ العسكري، يتحدث عن «قادة الفتوح في العراق والجزيرة».

ـ مِثْلُ مَنْ مثلاً أستاذ؟

أجاب الأستاذ:

ـ إنه يتحدث عن المُثَنَّى، وعن خالد، وعن سعد بن أبـي وقّاص، وعن غيرهم من قادة الفتح العربي الإسلامي.

وناولني الأستاذ الكتاب، فَقَلَّبْتُه، وقرأتُ فِهْرِسَه، ثم أعدْتُه إليه، شاكراً له، ومبدياً إعجابي بمضمونات الكتاب، وبالقادة العظام الذين نشروا الإسلام، وخلّصوا الشعوب من المظالم التي كانت تقع عليهم، ثم اقترحتُ عليه أن يختار لنا شخصية من شخصيات الكتاب، ويحدّثنا عنها، بدلاً من قتل الوقت في اللعب، فقد لعبْنا طَوالَ الطريق، ورَوَّحْنا عن أنفسنا بما فيه الكفاية.

استراح الأستاذ لاقتراحي، ووافق عليه، ثم قال لي:

ــ نادِ زملاءك.

فنادَيْتُهم بأعلى صوتي، فجاؤوا مسرعين، وجلسوا على العشب الأخضر أمام الأستاذ الذي بادرهم بقوله:

ــ اقترح زميلكم صادق، أن أختار لكم شخصية تاريخية، وأحدّثكم عنها، فإذا وافقتم على الاقتراح، فسوف أحدِّثكم عن شخصية تحبّونها جميعاً، وتتمَّنَوْن أن تكونوا مثلَ صاحبها...

فتعالت الصيحات: خالد... خالد... خالد...

ابتسم الأستاذ وقال:

ــ هذا ما كان في نفسي، وقد تحدّث مؤلف هذا الكتاب ــ ورفعه بيده عالياً ــ عن سيف الله خالد حديثاً لا يُعلى عليه، فاسمعوا ما أقول لكم، وعُوا كل كلمة وحادثة، وحاولوا أن تستخلصوا منها الدروس والعِبَر، فحياة خالد مليئة بجلائل الأعمال. وإذا أشكلَ عليكم أمر، فاسألوا عنه، فلا حياء في العلم، والذي يستحيي من السؤال، لا يتعلّم، ومن شاء منكم أن يسجّل بعض المعلومات، فلا بأس...

فأخرج بعضنا دفاتر صغيرة وأقلاماً، وكنت واحداً من هؤلاء، استعداداً لتسجيل المعلومات التي نريدها.

قال الأستاذ، بعد أن هدأنا، وشاهد أنظارنا مشدودة إليه:

ــ إنه البطل المغوار، سيف الله وسيف رسوله في الأرض، خالد بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ القرشيّ، الفاتح المظفر، والقائد الذي لم ينهزم في

معركة قط، والصحابـيّ الجليل الذي قاتل تحت لواء قائد المجاهدين، سيّدنا محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فنال بذلك شرف القتال تحت لوائه، كما نال شرف الصحبة. . . كان من أشراف قريش في الجاهلية، وقائد الخيّالة والفرسان في حربها، كما كان في الإسلام فارس الفرسان، والقائد المنتصر، والمجاهد المؤيَّد بنصر الله تعالى، فقد شارك في فتح مكَّةَ المكرَّمة، وقاتل في غزوة حُنَيْن، وأسهمَ في حصار الطائف وفتحها، وأنقذ جيش المسلمين في مؤتة، من هلاك محقّق، وكان المقاتل العنيد للمرتدين في نجد واليمامة، وهو هازم جيش مُسَيْلمة الكذَّاب، وهو فاتح العراق، وهو فاتح الشام، وهو القائد المنصور بالله، وهو الشاعر وهو الخطيب، وصدق سيّدنا أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه عندما قال:

«عجزت النساء أن يلدْنَ مثل خالد».

فقد كان خالد، غُرَّة في جبين تاريخ الفتح الإسلامي، وهو أشهر قائد عربـيّ عند العرب وغير العرب، على حدٍّ سواء.

رفعتُ يدي مستأذناً في الكلام، فلمّا أذن لي الأستاذ قلت:

ــ ما رأيُكم ــ أستاذ ــ في أن نوجّه إليكم أسئلة مما يدور في أذهاننا، حول البطل العظيم خالد، بدلاً من عملية السّرد؟ فلكلٍّ منا أسئلة واستيضاحات.

قال الأستاذ:

ــ أنا أثنّي على هذا الاقتراح الوجيه، لأنه أدعى إلى تنشيطكم، وإلى بثّ الحيوية والحركة فيكم، وإلى حلّ الإشكالات التي في رؤوسكم. . . تفضّلوا.

كنت أول السائلين. . . سألت الأستاذ الكريم عن أسرة خالد بن الوليد رضي الله عنه، فأجابني بقوله:

ــ أبوه الوليد بن المغيرة من سادات قريش وأشرافها، وهو ينتمي إلى بني مخزوم، وبنو مخزوم بطن من عشرة أبطن من قريش، انتهى إليها الشرف في الجاهلية.

ــ وأمّه؟

قال الأستاذ:

ـ أمّ خالد: هي العصماء، وهي لُبَابَةُ الصُّغْرى بنت الحارث بن حرب، وأمُّ خالد هي أخت أمّ الفضل زوجة العباس عم النبـيّ صلّى الله عليه وسلم، وهي أخت ميمونة زوجة النبـيّ صلّى الله عليه وسلم.

ـ إذن كانت بينه وبين الرسول قرابة؟

قال الأستاذ:

ـ أمّ المؤمنين ميمونة رضي الله عنها هي خالة خالد، وكذلك زوجة العباس بن عبد المطلب عم النبـيّ صلّى الله عليه وسلم كانت خالة خالد، ثم إنّ نسب خالد يجتمع بنسب النبـيّ الكريم في جدّهما مُرَّة.

ـ وماذا عن بني مخزوم يا أستاذ؟

قال الأستاذ:

ـ إضافة إلى ما تقدّم، كان في بني مخزوم القُبَّة وأَعِنَّة الخيل.

ـ لم أفهم ما تعنيه بالقُبَّة وأعنَّة الخيل يا أستاذ.

قال الأستاذ:

ـ القُبَّة: كانوا يضربون القُبَّة، أي ينصبون خيمة كبيرة تُسَمَّى القُبَّة، يجمعون فيها ما يجهّزون به الجيش، وأمَّا أعنَّة الخيل، فتعني قيادة الخيّالة والفرسان في الحروب.

وبنو مخزوم بَنَوا ربع الكعبة، من الركن اليماني، إلى الركن الأسود، وبَنَتْ قريشٌ ما بقي من البناء.

وكان لأبيه الوليد: الزرع والضّرع والتجارة.

وسأله أحد التلاميذ عن عمل خالد في الجاهلية، فأجاب:

ـ كان خالد يتولى عن بني مخزوم القبّة والأَعنَّة، أي أنه كان متفرّغاً للشؤون العسكرية، ولم يحترف أيَّ حرفة تدرُّ عليه الأموال والأرباح، وبهذا يكون عملُه قيادةَ الرِّجال في الحروب، والتدريبَ على الفروسية واستعمال السلاح أيام السِّلْم، استعداداً لأيِّ طارىء...

فعلَّقتُ بقولي:

ـ لا عَجَبَ، إذن، أن يتفوّق خالدٌ على أقرانه في كسب المعارك التي يخوضها.

وسأل أحد الزملاء:

ـ متى وُلد خالد؟ وأين وُلد يا أستاذ؟

فأجابه مدرِّسُ التاريخ الذي كان أُعجوبةً في حفظ المعلومات الكثيرة والدقيقة من أحداثٍ وتواريخ:

ـ وُلِد خالد في مكّة المكرَّمة، قبل الهجرة بخمس وعشرين سنة.

ـ ومتى أسلم؟

ـ أسلم خالد قبل فتح مكة، أيْ في السنة الثامنة من الهجرة النبوية.

وسأل تلميذ آخر:

ـ هل تذكر لنا قصّة إسلامه أستاذ؟

قال الأستاذ:

ـ حباً وكرامة. . .

عندما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم في مكَّة المكرَّمة، يؤدِّي عُمْرَة القضاء، وكان معه الوليد بن الوليد، أخو خالد بن الوليد، سأله رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن أخيه خالد، ثم قال عليه الصلاة والسلام:

«ما مِثْلُ خالد مَنْ جَهِلَ الإسلامَ، ولو كان جعلَ نِكايتَه وجِدَّه مع المسلمين على المشركين، لكان خيراً له، ولقدَّمْناه على غيره».

فكتب الوليد رسالة إلى أخيه خالد، ضمَّنها مقالة الرسول الكريم عن خالد، فكانت رسالة الوليد هذه، حافزاً له، وسبباً مباشراً في هجرته إلى المدينة المنوَّرة، وإعلان إسلامه أمام الرسول القائد صلّى الله عليه وسلم.

وعلَّقْتُ على كلام الأستاذ بقولي:

ـ معنى هذا، أن الوليد بن الوليد ـ أخا خالد ـ أسلم قبل أخيه خالد.

قال الأستاذ:

ـ فَهْمُك هذا صحيح يا صادق، فقد أسلم الوليد بعد غزوة أحد، وكان مع

النبيّ الكريم في عمرة القضاء.

وسأل أحد الزملاء:

ــ كيف اقتنع خالد بالإسلام؟ وكيف هاجر إلى النبـيّ عليه السلام يا أستاذ؟

أجاب الأستاذ:

ــ قلت لكم: إنَّ رسالة أخيه الوليد كانت الدافع إلى إعلان إسلامه، ولكنّي أعتقد أن خالداً العاقل الذكيّ الفؤاد، كان قد فكّر في الإسلام مليّاً، وهو يرى رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ومَجْريات حياته، ومسيرة الدعوة إلى الله، وتأييد الله لرسوله وللمؤمنين به، ثم جاءت رسالة أخيه الوليد، فدفعتْه دفعاً إلى الهجرة.

وفتح الأستاذ الكتاب الذي معه، وقال:

ــ اسمعوا ما جاء في هذا الكتاب القيّم عن إسلام خالد، وهجرته إلى المدينة.

قال خالد:

ــ «وطلبتُ مَنْ أُصاحب، فلقيتُ عثمان بن طلحة، فذكرتُ الذي أريد، فأسرعَ الإجابة، فخرجْنا جميعاً. فلمّا كنّا (بالهَدَّة) وهي موضع بأعلى (مرّ الظهران) على طريق مكَّة ــ المدينة. إذا عَمْرُو بن العاص.

قال عمرو: مرحباً بالقوم.

قلنا: وبك.

قال: أين مسيركُم؟

فقلتُ: والله لقد استقام المَنْسِم (أي تبيَّن الأمرُ ووَضَحَ) إنَّ الرجل لنـبيّ، أذهبُ والله لأُسْلِمَ، فحتى متى؟

فأخبرنا عمرو أنه يريد النبـيّ صلّى الله عليه وسلم أيضاً لِيُسْلِمَ، فاصطحبنا جميعاً، حتى قَدِمْنا المدينةَ على رسول الله صلّى الله عليه وسلم أَوَّلَ يوم من صفر، سنة ثمان.

فلمَّا طلعتُ على رسول الله صلّى الله عليه وسلم، سلَّمْتُ عليه بالنبوّة، فردَّ عليَّ السلام بوجهِ طَلْق، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحقّ، فقال رسول الله صلّى الله

عليه وسلم:

«قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوتُ ألاَّ يُسْلِمَك إلا إلى خير».

وبايعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وقلت:

«استغفر لي كلَّ ما أوضعْتُ فيه من صدٍّ عن سبيل الله».

فقال:

«إنَّ الإسلام يجبُّ ما كان قبله».

قلت:

«يا رسول لله على ذلك».

فقال:

«اللهم اغفرْ لخالد بن الوليد كلَّ ما أوضعَ فيه من صدٍّ عن سبيلك».

فوالله، ما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يومَ أسلمْتُ، يَعْدِلُ بـي أحداً من أصحابه فيما يُجْزِئه (أي يكفيه ويُغْنِيه).

وسكت الأستاذ هُنَيْهَةً ثمّ تابع القراءة من كتابه:

ـ وقال النبـيّ صلّى الله عليه وسلم عندما رأى خالداً وصاحبيه:

«ألقت إليكم مكَّة أفلاذَ كَبِدِها».

يعني أن خالداً وعَمْراً وعثمان بن طلحة، هم وجوه الناس من أهل مكة.

ثم أعطاه رسول الله صلّى الله عليه وسلم أرضاً ليبني عليها داره، وكانت بجانب دار النبـيّ الكريم، وصار خالد موضع ثقته، ومن كُتَّابه عليه السلام.

وقال أحد الزملاء:

ـ معنى هذا، أن الله تعالى غفر لخالد كلَّ الإساءات التي أساء بها إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم وإلى المسلمين.

فقال الأستاذ:

ـ هذا هو معنى قول الرسول الكريم: «الإسلام يجُبُّ ما كان قَبْلَه» فالإسلام يمحو كل ما كان قبله من ذنوب وخطايا.

وقلت للأستاذ:

ــ سيِّدي خالد بن الوليد هو فاتح بلاد الشام، وهو الذي حرّر أجدادنا من ظلم الروم، وطهّر أرضنا من رجسهم، لتعيش في أحضان العروبة والإسلام إلى أبد الآبدين بإذن الله، ولكنّ بلاد الشام ــ اليوم ــ حزينة، بعد أن عدا عليها العادون من بني الأصفر ومن بني صهيون، وإنها تنتظر القائد الذي تكون له عزمات خالد، وإخلاصه، وحنكته، لينقذ فلسطين مما فيها من بلاء واستعمار، ولهذا نريد أن تحدّثنا ــ يا أستاذ ــ عن بطولات خالد، لنستلهم منها الدروس والعبر، كما ذكرتَ لنا قبل قليل.

اعتدل الأستاذ في جلسته وتنحنح ثم قال:

ــ الشكوى لغير الله مذلة يا أبنائي، ونحن عندما نشكو إلى الله ما نلقى من تآمر المتآمرين على ديننا وقيمنا ووطننا وأرضنا، فلا يعني هذا أنْ نستكين وننتظر القائد المنقذ كخالد مثلاً، بل أن نعمل لإيجاد القائد وجند القائد المؤمنين الذين يعملون جميعاً لتحرير البلاد والعباد، ولإعادة الكرامة إلى هذه الأمة، وأنتم معنيّون بهذا قبل غيركم، فأنتم قادة المستقبل إن شاء الله، فادرسوا سِيَرَ قادتكم العظام، وتخلّقوا بأخلاقهم، لتكونوا مثلهم.

ــ إذن، هاتِ حدّثنا عن شِيَم هذا البطل الذي عجزت النساء أن يلدن مثله، كما قال الخليفة الصديق رضي الله عنه.

قال الأستاذ:

ــ أمضى خالد بن الوليد في الإسلام اثنتي عشرة سنة، خاض خلالها غمار إحدى وأربعين معركة، في اليمن والحجاز ونجد والعراق وأرض الشام.

كانت المعركة الأولى التي شارك فيها بعد إسلامه، هي معركة مؤتة، ومؤتة، يا أبنائي، هي الآن قرية من قرى الأردنّ. . . كان المسلمون فيها ثلاثة آلاف مجاهد، يقفون في مواجهة الأعداء من الكفار الذين يزيدون عليهم بسبعين ضعفاً. . . كانوا مئة ألف من الروم، ومئة ألف من كفار العرب. . . فالمعركة لم تكن متكافئة. . . واحد إلى سبعين. . . هل سمعتم بمثل هذا في الحروب، في القديم وفي الحديث؟

ومع ذلك، قاتل المسلمون قتالاً مريراً، غير هيّابين ولا وجلين من ضخامة جيش العدو، وكثافة جنوده وقادته... وكان خالد بن الوليد جندياً في تلك المعركة، ولكن، بعد أن استشهد القادة الثلاثة الذين أمّرهم الرسول القائد على الجيش، وهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبـي طالب، وعبد الله بن رواحة ـ اختاره المسلمون ليكون قائدهم في تلك المعركة التي تُعدُّ أول معركة بين المسلمين من جهة، وبين الروم من جهة أخرى... وقد قاد خالد المعركة بكفاءة نادرة، وأبدى من ضروب الشجاعة والإقدام، ما فلَّ من عزائم العدوّ، وشدّ من عزائم المسلمين، فلمّا أظلم الليل، غيّر خالد تنظيم جيشه، فجعل مقدّمته مؤخرة، ومؤخرته مقدمة، وميمنته ميسرة، وميسرته ميمنة، ثم نشر المؤخرة أو الساقة كما كانوا يدعونها، لتحتلّ مساحة شاسعة من الأرض، وأمرهم أن يُحْدثوا أصواتاً وجلبة عالية، بما لديهم من أبواق وطبول وأدوات حربية، كما أمرهم بإثارة الغبار، بالخيل التي جعلها تدور بسرعة في دوائر ضيّقة، ثم أمر الجيش بالانسحاب.

وقد فعل خالد هذا، تمويهاً على العدوّ، حتى لا يشعر بانسحاب القسم الأكبر من الجيش، وليجعل الروم يعتقدون أن إمدادات قوية جاءت إلى المسلمين.

ولهذا، لم يجرؤ الروم على مطاردة المسلمين، خوفاً من الوقوع في كمين قد يكون خالد نصبه لهم.

وبهذا التدبير الحكيم، والقيادة الفذة، استطاع خالد النجاة بجيشه الذي كان ينتظره الموت المحقق.

وكان خالد على رأس الساقة أو المؤخرة، يقاتل قتالاً بطولياً خارقاً، حتى تمكّن من فضّ الاشتباك.

وقد اندقَّت أو انكسرت في يده تسعة أسياف في هذه المعركة، ولم يثبت في يده سوى سيف يمانيّ.

وسكت الأستاذ هُنَيْهَةً ثم قال:

ـ وبهذا جعل خالد بأسه ونكايته بأعداء الله، وأطلق عليه المسلمون لقب (سيف الله) بعد أن سمعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلم يخبرهم بما حصل في

مؤتة فقال عليه السلام:

«أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذها جعفرٌ فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة، فأصيب، ثم أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم».

كانت قد بلغت منا القلوب الحناجر، ونحن نستمع إلى أغرب حرب في التاريخ، وقف فيها المسلم في مواجهة سبعين من أعداء الله، جاؤوا ليقضوا على هذا الدين، وعلى نبـيّ المسلمين، فلم ينالوا من المسلمين ما أمّلوا، وعادوا خائبين خائفين.

وسأل أحد الزملاء عن عدد الشهداء في معركة مؤتة، فقال الأستاذ:

ــ ثلاثة عشر شهيداً... هل تصدقون؟ ثلاثة عشر شهيداً فقط كانت خسائر المسلمين في معركة مؤتة، أمَّا خسائر العدوّ، فحدِّث ولا حرج، ويكفيك أن تعرف يا بنيّ، أن تسعة أسياف اندقَّت في يد خالد وَحْدَه، فكم عدد الذين جَنْدَلَهُم خالد وحده بأسيافه؟

إنَّ خسائر المسلمين في هذه المعركة لا تُعَدُّ من الخسائر، بالنسبة إلى ما كان ينتظرهم من سحقٍ وإبادة «مما يُعَدُّ معجزة عسكرية، ومفخرة خالدة لقيادة خالد».

قلت للأستاذ، أستزيده من هذه المعلومات المهمة:

ــ ثم ماذا يا أستاذ؟

فقال أستاذ التاريخ في مدرستنا الإعدادية:

ــ وفي فتح مكة، جعله الرسول القائد على ميمنة جيش الفتح، فتعرّض له المشركون، فقاتلهم خالد، وقتل منهم ثمانية وعشرين مشركاً، ثم انهزموا، وقد استشهد من المسلمين رجلان، رحمهما الله رحمة واسعة. وبهذا القتال وبسواه، صار خالد سيف الله المسلول على المشركين، عرباً كانوا أم روماً أم فرساً.

وبعد خمسة أيام من فتح مكة، أرسله النبـيّ الكريم لهدم العُزَّى.

فسأل أحد الزملاء، عن العُزَّى، فقال الأستاذ:

ــ العُزَّى هي أعظم الأصنام عند قريش وبني كنانة ومُضَر كلِّها. بعث الرسول القائد خالداً على رأس ثلاثين فارساً لهدمها، فهدمها خالد وهو يرتجز:

يـا عُـزَّ كفـرانـك لا سبحـانـك　　إنـي رأيـت الله قـد أهـانـك

وحضر خالد غزوة حُنَيْنٍ، وقد جعله رسول الله على مُقدِّمة جيش المسلمين، ومعه مئة فارس، فقاتل مع الرسول القائد قتالاً شديداً، حتى هزموا ثقيفاً وجموعها الكبيرة، وقد جُرح خالد في حنين، وعاده الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلم، ولكنّ جراحه لم تمنعه من مواصلة القتال في حصار الطائف.

كما أن النبـيّ أرسل خالداً إلى بني جَذِيمة، ليدعوَهم إلى الإسلام. كما بعثه بمهمة إلى بني المُصْطَلِق ليتأكد هل هم مسلمون أم ارتدّوا عن الإسلام، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً، وبثَّ عيونه فيهم، فعادوا إليه وأخبروه بأن القوم متمسّكون بالإسلام، وأنهم سمعوا أذانهم وصلاتهم، فلمّا أصبحوا أتاهم خالد، فرأى صِدْقَ ما نقل إليه عيونُه، فرجع إلى النبـيّ الكريم وأخبره الخبر، فنزل قول الله تعالى مندِّداً بالذين نقلوا للنبـيّ الكريم أنَّ بني المصطلق قد ارتدوا عن دينهم:

﴿يا أيُّها الذين آمنوا، إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيَّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾.

ـ ثم ماذا يا أستاذ؟

تبسَّم الأستاذ في سرور، وهو يرى إصغاءنا له، وحَثَّنا إياه على مواصلة الحديث، ثم قال:

ـ وبعد غزوة (تبوك) بعث الرسول القائد خالداً إلى (دومة الجندل) الواقعة بين دمشق والمدينة، وأمره بهدم الصنم (ودّ) وهو تمثال رجل كبير الجسم، كان بنو كلب بن وَبْرَة يعبدونه، فذهب خالد على رأس أربع مئة وعشرين فارساً، وحاول عبّاد ذلك الصنم منع خالد من هدمه، فقاتلهم خالد، وهزمهم، ثم هدمه وكسره جُذاذاً.

وبلع الأستاذ ريقه، ثم سعل وتنحنح كعادته، ثم قال:

ـ وهكذا صار خالد هادماً للشرك ورموز الشرك . . . وهكذا عَرَفَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم فيه القائدَ الفذّ، فعقد له الرايات.

رأينا التعب في صوت الأستاذ، فتركناه يستريح، وانزويتُ عن زملائي.

شاهدتُ ربوة مَكْسُوَّةً ببساطٍ أخضرَ من العشب، فهرولت نحوها، ثمَّ ألقيتُ بنفسي فوق ذلك البساط الطبيعيّ البديع، ثمَّ تربَّعت في جلستي، وسرحتُ بخيالي وفكري وبصري، وإذا أنا بفارس يسابق الريح على فرس أشقر، ثم خفَّف من سرعته عندما اقترب منِّي، فنهضتُ أنظر إليه وقد ترجَّل عن فرسه، وإذا هو رجل طويل ضخم، ذو لحية عريضة. . . تقدَّمْتُ منه، وسلَّمْتُ عليه، ثم مَشَيْنا نحو الرابية الخضراء، وإذا أختي صادقة تطلُّ برأسها الصغير من خلف الرابية، ثم تأتينا مسرعةً، وهي تقول:

ــ أنا عرفته يا صادق، فهل عرفت سيف الله خالد بن الوليد؟

اغرورقت عيناي بدمع الفرح، وأنا أحاول عبثاً معانقة ذلك الفارس الذي لم ينهزم في معركة قط، فأخذ بيدي، وجلسنا فوق الرابية، أمَّا صادقة، فإنها وقفت تتأمل جدّنا خالداً في زهو وتقول:

ــ أمنيتي في الحياة، أن ألقاك يا جدّي في حلم من أحلامي الكثيرة.

وقلت أنا:

ــ كان حديثنا اليوم عنك يا سيِّدي. . . حدّثنا أستاذنا عن صحبتك للرسول القائد عليه السلام، وعن قتالك تحت لوائه، وكيف عقد لك الألوية والرايات، لتقاتل أعداء الله في مؤتة ودومة الجندل وفتح مكة، وفي غزوة تبوك، وكيف هدمت الأصنام، ولم نترك الأستاذ ليستريح، إلا بعدما لحظنا الإعياء في صوته وحركته.

ابتسم سيف الله خالد وقال متسائلاً:

ــ وأنتم؟ ألم تتعبوا أو تملّوا من الحديث عن شخصي المتواضع؟

فاتخذتْ صادقةُ لنفسها هيأةَ الاستعداد كأنها جنديٌّ أمام قائده وقالت:

ــ أما أنا، فعلى استعداد أن أُمضي الأيام في الإصغاء إلى أحاديثك الرائعة، ولن تكون إلا عن بطولاتك الفذّة، ومعاركك الخالدة يا جدّي العظيم الخالد الذكر.

فقال سيّدي خالد، ووجهه الجميل ما يزال يطفح بالابتسامات العِذاب:

ـ وأنا مستعدّ، فمن أين نبدأ؟

قالت صادقة:

ـ كلُّ الناس يتحدّثون عن جهادك، وأنا منهم طبعاً، ومن حقّ الخلود علينا، أن نكون ألسنة الزمان الذي شهد جولاتك وصولاتك، لنتحدّث بها وعنها. ولكن. . . أين خالد الداعية؟

أجاب خالد رضي الله عنه وأرضاه:

ـ كلٌّ يعبد الله على طريقته. . . أنا أعبد الله بسيفي وجهادي في سبيله، ثمّ إن الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل إعلاء كلمته، شيء واحد، فكلّ مجاهد داعية، كما ينبغي أن يكون كلُّ داعية مجاهداً من أجل التمكين لهذا الدين.

صادقة: هل كلّفك رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بدعوة الناس إلى الإسلام مثلاً؟

خالد: نعم. . فقد بعثني رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى نجران في أربع مئة من المسلمين، وأمرني أن أدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً قبل أن أقاتلهم، فإن استجابوا قبلتُ منهم وكانوا لنا إخوة في الله، وإن لم يستجيبوا أقاتلهم.

صادقة: وهل استجابوا لداعي الله يا جدي؟

خالد: أجل. . . لقد أسلموا، فأقمتُ فيهم أعلّمهم الإسلام، وكتاب الله وسنَّة نبيّه عليه الصلاة والسلام، وكتبت بذلك إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم، أبشّره بإسلامهم، وأني مقيم بينهم، آمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهى الله عنه، وأعلِّمهم معالم الإسلام، وسنَّة النبـيّ صلّى الله عليه وسلم، وأني سوف أبقى عندهم، حتى يكتب إليّ النبـيّ الكريم فيما يراه مناسباً.

صادق: وهل أجابك الرسول القائد على رسالتك يا سيّدي؟

خالد: وهل هذا سؤال يا ولدي يا؟

صادق: صادق. . . اسمي صادق يا سيّدي، واسم أختي هذه صادقة. . . ثم اسمح لي، يا سيّدي، أن أوضّح لك، أنَّ أكثر القادة يهملون مرؤوسيهم، فلا يأبهون لما يكتبون لهم.

خالد: ولكن رسول الله قدوة، وسيِّد من يعلّم الناس الذوق، إنه، بأبـي هو وأمي ونفسي، لا يهمل صغيراً مهما ضؤل وصغر، فكيف لا يجيب أحد قادته؟ لقد كتب إليّ يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبـيّ رسول الله، إلى خالد بن الوليد.

سلام عليك؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أمَّا بعد:

فإنَّ كتابك جاءني مع رسولك، يخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتَهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً عبده ورسوله، وأنْ قد هداهم الله بهداه، فبشِّرهم وأنذرْهم وأَقْبِلْ، ولْيُقْبِل معك وفدُهم. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

فأقبلتُ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وأقبل معي وفد بني الحارث، فلمّا وقفوا على رسول الله سلَّموا عليه، وقالوا:

نشهد أنك رسول الله، وأنه لا إله إلا الله.

ثم قال لهم رسول الله:

«لو أنَّ خالداً لم يكتب إليّ أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا، لألقيتُ رؤوسكم تحت أقدامكم».

صادق: وهل أجابوا رسول الله بشيء؟

خالد: نعم... أجابه يزيد بن عبد المَدان بقوله:

أمَا ــ والله ــ ما حَمِدْناك ولا حَمِدْنا خالداً.

قال الرسول النبـيّ: «فمن حمِدتم»؟

قالوا: حَمِدنا الله الذي هدانا بك يا رسول الله.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «صدقتم».

ثم قال: «بِمَ كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية»؟

قالوا: لم نك نغلبُ أحداً.

قال: «بلى، قد كنتم تغلبون من قاتلكم».

قالوا: كُنَّا نغلب من قاتلنا ــ يا رسول الله ــ أنَّا كنَّا نجتمع ولا نتفرّق، ولا

نبدأ أحداً بظلم.

قال: «صدقتم».

صادقة: الله أكبر... كادت أنفاسي تحتبس... ما هذا الحوار الساخن يا جدّي؟

صادق: ثم ماذا يا سيّدي؟

خالد: وأرسلني النبـيّ الكريم إلى اليمن، فدعوت الناس إلى الإسلام، فأسلمت (همدان) ثم بعث النبـيّ عليّ بن أبـي طالب ليقبض الخُمُسَ منهم.

صادق: كلُّ ما سمعناه منك يا سيِّدي، وما سمعناه من الأستاذ، كان خلال السنوات الأربع التي قضيتَها إلى جانب الرسول القائد؟

خالد: خلال هذه السنوات الأربع، قاتلتُ شمالاً على حدود الشام، وجنوباً في اليمن، وشهدتُ أحد عشر مشهداً، قاتلتُ في ثلاثة منها تحت لواء الرسول القائد ــ كما تقولون بحقّ وصدق ــ وقاتلتُ في ثلاثة منها قائداً مستقلاً، ولم أقاتل في خمسة مشاهد منها، بل أنجزت واجبـي فيها سلماً.

صادق: ومن أين جئت بالوقت الكافي لإنجاز كل هذه الأعمال يا سيِّدي؟

صادقة: أنا أقول لك... إن الله سبحانه قد بارك في الوقت لسيف يقاتل في سبيله، كما منح جدّي القائدَ الفذّ خالداً كفاءة نادرة، قلَّما نرى لها مثيلاً في التاريخ القديم، وفي التاريخ الحديث.

صادق: هذا وذاك مع الرسول القائد عليه السلام، فماذا بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى؟

خالد: عندما تُوفِّي رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ارتدت أكثر القبائل العربية، وظهر النفاق واستعلن، واشرأبَّ اليهود بأعناقهم الغليظة، وصار المسلمون كالغنم التائهة في الليلة المطيرة، لفقد نبيّهم العظيم، ولقلّة عددهم، وكثرة أعدائهم.

صادق: وأصرّ الخليفة الصِّدِّيق على قتال المرتدين.

خالد: وانتدبني لقتالهم، فقاتلتُ طُلَيْحَةَ بنَ خُوَيْلد الأسديّ الذي ادّعى

النبوّة، قتالاً شديداً، وهزمتُه، وقاتلتُ المرتدين الذين كانوا مع مالك بن نويرة، وسَجَاح وهزمتُهم، ولكنَّ أعنف المعارك وأشدَّها كانت مع مُسَيْلَمَةَ الكذّاب وقبيلته بني حنيفة، ومن لحق بهم من الأعراب، وهزمتُهم شرَّ هزيمة.

صادق: كم كان عدد المقاتلين مع مسيلمة الكذّاب يا سيِّدي؟

خالد: كانوا قريباً من مئة ألف مقاتل.

صادق: وأنتم؟

خالد: كنَّا ثلاثةَ عشرَ ألفاً، وأمكننا الله من رقابهم، فقتلْنا منهم واحداً وعشرين ألفاً، وقتلْنا مسيلمةَ الكذاب في حديقة الموت التي لجأ إليها هو ومن معه.

صادق: وعدد الشهداء؟

خالد: استشهد منا ألف ومئتا مقاتل، منهم خمس مئة من القُرَّاء، من خيرة صحابة رسول الله، رحمهم الله رحمة واسعة.

صادق: أيْ أنّ نسبة القتلى من المسلمين تعادل ستة في المئة من قتلى المشركين.

خالد: احسْبها كما تشاء... المهمُّ أن قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار.

صادقة: والمهمّ، يا جدّي، أنَّ النصر الذي أحرزتموه في حروب الردّة، قد منحكم ثقة كبيرة بأنفسكم، وبقدراتكم، وبنظامكم الذي انتصر بكم في تلك المعارك، وبإسلامكم الذي أكسبكم معنويات عالية.... هذه الثقة اجتازت الحدود والسدود إلى أعدائكم، حتى صار اسم خالد يسبق خالداً وجيشه، ليحطّ من معنويات العدوّ، ويُسْهِمَ في هزيمة جموعه وجيوشه.

صادق: وكان هذا ضرورياً لمواجهة أكبر دولتين، لهما من القوة المادية والعددية ما يفوق ما عند المسلمين أضعافاً مضاعفة.

خالد: الحقّ أقول لكم: لقد استقرّ في أذهان الفرس والروم وذيولهما من العرب والأعراب، أننا لا بدّ منتصرون عليهم، كما استقرّ في أذهان المسلمين، أنه ليس هناك شيء اسمه مستحيل، فالمستحيل أنْ لا ينتصر المسلمون... وكلُّ هذا

بفضل الله الذي نصر نبيَّه بالرُّعب مسيرةَ شهر.

صادق: لقد قرأت لكاتبٍ في التاريخ العسكري الإسلامي قوله: «إن معارك الردَّة كانت ذات قيمة فنيَّة لا تُقَدَّر. وإذا كان التاريخ قد نعى كثرة من قُتل فيها من أعلام المسلمين، وحُفّاظ القرآن، فإننا نرى أنه كان لا بد من هذا، سداداً لثمن خبرة الحرب التي اكتسبها المسلمون، فمكَّنت لهم من أعدائهم، وذلَّلتْ لهم النصر على الفرس وعلى الرُّوم على السواء... كان شهداء حروب الردّة ثمناً دفعتْه الأمَّةُ ليس لكسب الحرب فحسب، بل كانوا ثمناً لقمع الرّدَّة وللفتوح بعدها... كانوا ضريبة الحياة لهذه الأمَّة، وانسياح الإسلام في الشرق والغرب».

خالد: هذا صحيح... تحليل سليم، واستنتاج سليم.

صادق: ولعلّ هذا يقودنا إلى دورك العظيم في فتوح العراق والشام يا سيّدي.

خالد: إن أحببتم.

صادقة: كلّنا حبٌّ وشغف للتعرّف على دورك العظيم الذي أنقذ أجدادنا وأنقذنا من بعدهم، من ضلال الشرك والكفر، إلى سبيل الله الموصل إلى جنة الخلد.

خالد: من أين نبدأ؟

صادق: من حيث تشاء يا سيِّدي.

خالد: حين فرغت من حرب اليمامة، وهزمت المرتدين، وقضيت على فلولهم، وبتُّ أنتظر أوامر الخليفة الجليل أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه، جاءني كتاب الخليفة يأمرني فيه بالتوجه إلى العراق بمن يرغب في البقاء معي من الجند.

صادقة: هذا يعني عدم إجبار أحدٍ من الجند على البقاء معك، والتوجّه إلى العراق يا جدّي.

خالد: فهمُك سليم... فانفضّ عني كثير من المقاتلين، ولم يبق معي سوى ألفين، سرتُ بهما إلى العراق.

صادقة: بألفين تريد محاربة جيوش الفرس يا جدّي؟

خالد: لا يا صادقة... كان المثنّى بن حارثة الشيباني يقاتل بجيشه في العراق، وكان هناك قادة آخرون يقاتلون معه.

صادق: كم كان مع المثنى والقادة الآخرين يا سيدي؟

خالد: كان معهم ثمانية آلاف مقاتل.

(لم نكن قد لاحظنا القسمات الصارمة على وجه سيّدي خالد، لأنها كانت متوارية خلف أكاليل البسمات الآسرة التي كانت تتوّج محيّاه، أمّا الآن، والقائد يتأهّب لخوض معارك لم يسبق للعرب أن خاضوا مثلها، حتى في موقعة ذي قار، فقد ظهرت تلك القسمات القاسية).

خالد: أرى أنكما غير مقتنعين... أنا لم أكمل حديثي... أنتما تقاطعاني.

صادقة: عفواً يا جدّي... تفضَّلْ وخذْ راحتك في الحديث، وفصِّلْ ما تستطيع من التفصيل.

خالد: عندما انفضَّ عني المقاتلون، ولم يبق معي سوى ألفين، كتبتُ إلى الخليفة الصِّدِّيق أطلب منه المدد، فأمدّني... هل تعرفون بمن وبكم أمدّني؟

صادق: بمن أمدَّك يا سيِّدي؟

خالد: بالقعقاع.

صادق: فقط؟

خالد: فقط... وقد استغرب الذين رأوا أبا بكر يفعل هذا، فقالوا له:

«أتمدُّ رجلاً قد انفضّ عنه جنودُه برجل؟».

ولكنّ أبا بكر العليم بالرجال أجابهم: «لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا».

ثم سكت قليلاً وقال: «لَصوتُ القعقاع في الجيش، خيرٌ من ألف رجل».

صادق: إذا كان صوت القعقاع خيراً من ألف رجل، فماذا عن قوته البدنية؟ وماذا عن سيفه؟

خالد: القعقاع، يا أولادي، كما وصفه الخليفة أبو بكر... إنه بآلاف الرجال...

صادقة: نعم يا جدّي... ثم ماذا؟

خالد: وكنتُ في طريقي إلى العراق، أستنفر الناس، ممن ثَبَتَ على الإسلام وقاتل أهل الردّة، و . . .

صادق: ما دام أهل الردّة قد تابوا وعادوا إلى الإسلام، فلماذا لا تستفيد منهم؟

خالد: هكذا أمر الخليفة. . . كتب إليّ: «استنفر مَنْ قاتل أهلَ الرّدّة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ولا يغزُوَنَّ معكم أحدٌ ارتدَّ حتى أرى رأيي». وهكذا لم يشهد معنا هذه المعارك مَنْ سبقتْ له رِدَّةٌ طَوالَ عهد أبي بكر، ثم سُمح لهم بمشاركة المسلمين في القتال، في عهد عمر بن الخطاب، بعد أن تأكد من توبتهم، وحسن إسلامهم، واشترط عمرُ أنْ لا يتولّوا رئاسات.

صادقة: الله أكبر، حتى في هذا الوقت الذي يفتقر فيه المسلمون إلى مَنْ يقاتل معهم من المسلمين، لا ينسى الخليفةُ الصِّدِّيق الهدفَ من هذه الفتوح، وهو هدف نبيل، يريد إخراج الناس من ظلمات الشرك والوثنية، إلى أنوار الإسلام.

خالد: هذا لأن الهدف النبيل، يحتاج إلى الوسائل الشريفة، والمسلمين النبلاء الذي يَسْعَوْن إلى تحقيقه.

وهكذا صار معي خمسة آلاف مقاتل عندما وصلتُ إلى (شراف)، وتعَجَّبَ أهل (شراف) مني وممن معي، كيف نتوغل في أرض العجم بهذا العدد القليل، ثم فوجئنا بطلائع خيل الفرس، ولكنهم عندما رأونا تراجعوا إلى حصنهم، فلَحِقْنا بهم، وحاصرْناهم، ثم فتحْنا الحصن، وقتلْنا المقاتلين، منهم، وسَبَيْنا وأخذْنا كلَّ ما فيه من سلاحٍ ومتاعٍ ودوابّ، ثم هدمنا الحصن.

صادق: الله أكبر. . . هذا أول الغيث.

خالد: ثم سرنا إلى (العذيب) وفيه حصن مليء بالمقاتلين الفرس، فقاتلناهم، وتغلّبْنا عليهم، وقتلْنا مقاتليهم، وسبينا وأخذنا كلَّ ما كان فيه من سلاح ومتاع ودوابّ، ثم هدمْنا الحصن.

صادق: الله أكبر. . . هذه ثاني معركة مع الفرس.

خالد: فلمّا سمع أهلُ القادسية بما جرى، طلبوا منا الصلح، فصالحناهم

على الجزية.

صادقة: بدأت معنويات الفرس تتحطَّمُ.

صادق: والقائد المثنّى؟ ألم يكن القائدَ العامَّ لجيش العراق؟

خالد: بل كنتُ أنا القائد العام، وقد كتب الخليفة إليه بهذا، وأمره بطاعتي. اسمعوا ما كتبه الصدّيق للمثنّى البطل: «إني قد ولَّيتُ خالدَ بن الوليد، فكن معه».

هل أتابع الحديث؟

صادق: تفضَّل يا سيِّدي أرجوك.

خالد: ومضيتُ من القادسيَّة حتى نزلتُ (النجف) وكان فيه حصن حصين لكسرى، ورجال مقاتلون من الفرس، فحاصرتهم، ثم فتحت الحصن كما فتحت ما قَبْلَه من الحصون. ثم فتحْنا حصن (أُلَّيْس) كذلك، ثم تابعنا طريقنا إلى (الحِيرة).

وسكت القائد المظفر هنيهة، ثم قال:

ــ نسيت أن أقول لكم: إنَّ الخليفة وجَّه إلى العراق جيشين، الأول بقيادتي. وأمرني أن أهاجم العراق من جنوبه، والثاني بقيادة عِيَاض بن غَنْم، وأمره بمهاجمة العراق من الشمال.

صادقة: لماذا لم يجمع الخليفة الجيشين في جيش واحد بقيادتك يا جدّي؟

خالد: فعل الخليفة ذلك، لتفريق قوات العدوّ من جهة، ولتضليل الفرس عن الاتجاه الرئيسي لقوات المسلمين من جهة أخرى، كما أنه لا يمكن ــ عسكرياً ــ البدء من (الحيرة) وترك قوات معادية في الجنوب... فمن المحتمل أن يقوم العدو بتطويق قواتنا، وإبادتها، أو تهديد سلامة تقدُّمها بعد الحيرة باتجاه الشرق أو الشمال أو الجنوب.

صادقة: فهمت.

خالد: كتبتُ إلى المثنى وإلى أمراء الجند في العراق ليلحقوا بـي، فأسرعوا بجنودهم إليّ، وكان معهم ثمانية آلاف مقاتل، واستطعت أنا أن أحشد ثمانية آلاف أيضاً، إضافة إلى الألفين اللذين كانا معي، فكم صار عدد قواتنا يا صادقة؟

صادقة: ثمانية عشر ألفاً.

خالد: صحيح... أحسنتِ...

سرنا نحو (الأُبُلَّة) وهي ميناء على شطّ العرب، بل كانت أعظم موانىء الفرس شأناً، وأشدَّها شَوْكَةً، وكانت بلدةً كبيرة، وإليها كانت ترسو السفن الوافدة من الهند والسند، وكانت بساتين النخيل والأُتْرُجِّ والنَّارَنْجِ وسائر الأشجار المثمرة، تحيط بنهر (الأبلّة) كما تحيط به مزارع الخضروات، وكان أمير (الأبلة) يدعى (هُرْمُز)، وكان من أسوأ أمرائها جواراً للعرب، فكلُّ العرب له كارهٌ، حتى صار مَضْرِبَ المثل عند العرب في الخبث والمكر والكفر، فكانوا يقولون: «أخبث من هرمز، وأكفر من هرمز».

كتبت إلى هرمز هذا رسالة قلت فيها:

«أما بعد. فأسلمْ تَسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمّة، وأقررْ بالجزية، وإلا فلا تلومنَّ إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبّون الموت، كما تحبّون الحياة».

صادقة: كأني بك يا جدّي العظيم، أردت بهذه الرسالة القصيرة جداً أمرين اثنين:

الأول: أداء واجب الدعوة إلى الإسلام أو إلى دفع الجزية قبل الحرب.

والثاني: إعلان الحرب في حالة رفضه الاستجابة إلى الإسلام أو دفع الجزية.

خالد: هذا صحيح، وهذه هي تعاليم الرسول القائد، وأوامر خليفته أبي بكر.

صادق: ثم إنك، يا سيِّدي، تحاربه حرباً نفسية بتهديدك إياه بمن معك من المسلمين الذين يحبّون الموت كما يحبّ هو ومن معه الحياة... لقد ألقيتَ الرعب في نفوسهم.

صادقة: كما ألقيتَ الرُّعبَ في نفوسهم أيضاً، بفتح تلك الحصون، وقَتْلِ مَنْ فيها من المقاتلين.

خالد: قسمتُ جيشي إلى ثلاث فِرَقٍ، وأمرتُ كلَّ فِرْقَةٍ بسلوك طريقٍ غيرِ طريق الفرقتين الأخريين.

كان المثنى على مقدّمة الجيش، وجعلتُ عَدِيَّ بن حاتمٍ الطائيّ على المَيْسَرة، وعاصمَ بن عمرٍو ــ أخا القعقاع ــ على المَيْمَنة، ثم خرجتُ بعدهم، وجعلت (الحفير) مكان التقائنا وتجمُّعنا، ثم أمرتُ المثنّى بالمسير قبل أن أتحرك بمن بقي معي بيومين، وتلاه عَدِيُّ بن حاتم، ثم عاصم.

ولكنَّ (هرمز) سبقنا بجموعه إلى (الحفير) بعدما علم بتواعدنا عنده، وعبّأ قواتِه فيه، وقيَّد جنودَه بعضهم بعضاً بالسلاسل، فتشاءم بعض القادة الفرس من هذا، وقالوا لمن قيّدوا أنفسهم: «قيَّدتم أنفسَكم لعدوّكم، فلا تفعلوا، فإن هذا طائرُ سُوء» فأجابوهم: «أمَّا أنتم، فيحدثوننا أنكم تريدون الهرب».

صادق: هذا يعني أن الفرس كانوا مهزومين من الداخل، قبل أن يواجهوكم يا سيِّدي، وإلا فما كان بعضهم يقيّد نفسه بالسلاسل خشية الفرار من المعركة، وما كان هذا البعض المقيَّد ليتَّهم الذين لم يقيِّدوا أنفسهم بأنهم سوف يهربون من أمامكم.

خالد: ربما...

عندما علمتُ أن هرمز سبقنا إلى (الحفير) أمرت الجيش بالتوجّه نحو (كاظمة) وفيها ماء عذب، وتقع على ساحل الخليج، ولكنّ هرمز علم بهذا، فسبقنا إل كاظمة، فنزلها وقد استبدّ به الغيظ، وأعاد تعبئة جنده، واقترنوا مرة أخرى بالسلاسل، ثم إنهم احتلّوا الماء، كما كان معهم فيل من أفيال القتال.

صادقة: وأين نزلتم أنتم يا جدِّي؟

خالد: نزلنا في مواجهتهم، ولم يكن لدينا ماء، فأمرت المنادي أن ينادي في العسكر: «ألا انزلوا وحطّوا أثقالكم، ثم جالدوهم على الماء، فلعمري لَيَصِيرَنَّ الماءُ لأصبرِ الفريقين، وأكرمِ الجُنْدين».

صادقة: لقد أدخلتَ في الأمر حافزاً جديداً إلى نفوس المجاهدين، وهو القتال من أجل الماء في الصحراء يا جدِّي.

خالد: صففت قواتي استعداداً للقتال، وفيما أنا مشغول بذلك، خرج هرمز بين العسكرين، ونادى: «رجل ورجل... أين خالد»؟

صادق: يعني طلبك للمبارزة يا سيِّدي؟

خالد: نعم، وقد نوى الغدر بـي ورسم خُطَّتَه... فخرجتُ له، والناسُ من العسكرين ينظرون... والتقينا، واختلفْنا ضربتين، ضربتُه ضربة فتلقّاها، وضربني ضربة فتلقيتُها، ثم هجمتُ عليه فاحتضنتُه، كنت أنوي أَسْرَه، ولم أعلم أنه نوى الغدر، إلا عندما هاجمتني حامية هرمز، وأحاط جنوده بنا من كلّ جانب، حتى اختفينا عن أنظار العسكرين، الأمر الذي دفعني إلى قتله، وإلى مقاومة حُرّاسه الغادرين، وأنا واثق بنصر الله، ورأى القعقاع غَدْرَ الفرس، فهاجمهم بمن معه من الأبطال، حتى كشفهم عني، ونشبت المعركة، والتحم العسكران، وقد بلغت الحماسة بجند المسلمين مبلغها، كما انكسرت شوكة الفرس وهم يرون قائدهم صريعاً تحت سنابك خيولنا، فدَبَّ الرعب والذعر في قلوبهم، وكانت بداية الهزيمة، وقتلنا منهم مَقْتَلَةً عظيمة، وأسرْنا الكثيرين من المقرَّنين بالسلاسل، وسُمِّيت هذه المعركة بذات السلاسل.

صادق: كأن الكفرة والمشركين لا يبالون بغدر، ولا يعرفون أخلاق الفرسان.

صادقة: وكأني بالقعقاع رجلاً إعصاراً يكتسح الأبطال، ويقتلعهم من جذورهم.

صادق: لم تحدّثنا عن الفيل يا سيِّدي.

خالد: وقع الفيل بأيدينا، فأرسلتُه مع الخُمُس إلى الخليفة أبـي بكر في المدينة، وهناك طيْفَ به في أزقَّة المدينة ليراه المسلمون، فأدهشهم منظره، ثم ردَّه أبو بكر إلى العراق، فمات الفيل في الطريق.

صادقة: ثمَّ ماذا يا جدِّي؟

خالد: ثم تقدَّمتُ إلى منطقة البصرة، فقال لي قائدها سويد بن قطبة الذهلي:

«إنَّ أهل الأُبُلَّة قد جمعوا لي، ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك».

فقلت له: «فالرأي أن أخرج من البصرة نهاراً، ثم أعود ليلاً، فأدخلُ عسكرك

بأصحابي، فإن صبّحوك حاربناهم».

صادق: كأنك تريد استدراج قوات الأبلة إلى القتال خارجها يا سيِّدي؟

خالد: طبعاً... وهذا خير من مهاجمتها، وجيشُها متحصِّنٌ فيها...

وهكذا كان... خرجت بجيشي نحو الحيرة، فلما أظلم الليل، رجعنا ودخلنا في معسكر البصرة، فلما أصبح الصباح، خرج جيش الأبلة لمقاتلة جيش المسلمين وهو لا يدري بوجودنا، فلما اقتربوا منّا، وشاهدوا كثرة العسكر، انكسرت معنوياتهم، ورأيتُ الهزيمةَ في صفوفهم، فصحتُ في المسلمين: «احملوا عليهم، فإني أرى هيأة قوم قد ألقى الله في قلوبهم الرعب».

صادقة: وحملتم عليهم، وهزمتموهم، أليس كذلك يا جدِّي العظيم؟

خالد: وأيُّ هزيمة... لقد قتلنا منهم مقتلة عظيمة، وغرقت أعداد منهم في نهر دجلة، وكلُّ ذلك بفضل الله، ينصر من يشاء بفضله.

صادقة: وماذا فعلتم بالفلاحين الذين لم يقاتلوكم يا جدِّي؟

خالد: تركناهم في أرضهم، يفلحونها ويزرعونها، وجعلنا لهم الذمّة.

صادقة: لا بد أنَّ هذا النصر المؤزَّر، قد رفع معنويات المسلمين، وجرّأهم على الفرس، فلم يعودوا يهابونهم، ولا يخشون لقاءهم.

صادق: متى حدثت معركة ذات السلاسل يا سيّدي ؟

خالد: في شهر المحرم سنة اثنتي عشرة.

صادق: والمعركة التي بعدها؟

خالد: كانت معركة (المَذار) على الشاطيء الشرقيِّ لنهر دِجْلة... التقيتُ فيها القائدَ الفارسيّ (قارن) ومعه جيش كبير، وكانت قد انضمَّتْ إليه فلول جيش هرمز، مِمَّن فرّوا من معركة ذات السلاسل، وتعاهدوا على قتال المسلمين، وعندما التقينا، دعاني (قارن) إلى المبارزة، فخرجت إليه، ولكنّ البطل معقل بن الأعشى النبَّاشيّ سبقني إليه فقتله. ثم دارت المعركة، وانتصرنا على الفرس انتصاراً ساحقاً، وهزمناهم هزيمة منكرة... قتلنا منهم ما لا يقلّ عن ثلاثين ألفاً، سوى مَنْ غرقَ منهم في النهر، ولولا المياه التي ألقوا بأنفسهم فيها، ما نجا من

الموت واحد منهم.

صادق: الله أكبر... الله أكبر... ثم ماذا يا جدِّي؟

خالد: أقمتُ بالمذار فترة قصيرة، كنت خلالها أرتِّب أمور الجيش، وأقيم الحاميات على منافذ المنطقة التي فتحناها، وأجمع المعلومات عن العدوّ، وأراقب تحركاته، حتى لا نؤتى على حين غرّة.

صادقة: وملك الفرس؟ ألم يسمع بالهزائم التي ألحقتها بجيوشه يا جدِّي العظيم؟

خالد: كانت أخبار المعارك تصل إلى كسرى باستمرار، وعندما بلغته هزيمة جيشه في (المذار) بعث جيشاً بقيادة (أنْدَرْزَغر) فتوجه نحو (الولجة) وخرج في إثره القائدُ الفارسيُّ المحنَّك (بَهْمَنْ جاذَوَيْهِ) في جيش آخر، ولكنَّ (جاذويه) سلك طريقاً آخر، كأنه كان يفكّر أن يحصرني بين جيشه وجيش (أندرزغر).

وانضمت حشود كثيفة إلى جيش (أندرزغر) ففرح بكثافة جنده، وتابع سيره إلى (الولجة) دون أن ينتظر جيش (بهمن جاذويه).

علمت بتحركات الفرس هذه وأنا ما أزال في (المذار)، فقررت أن أخرج بجيشي إلى طريق الصحراء، جنوبيّ الفرات قبل أن أحاصَر، وأمرت الحاميات بالحذر، وحماية ظهورنا.

تحرّكنا بسرعة، حتى نزلنا (الولجة) وقد عسكر فيها (أندرزغر)... نظرتُ إلى أرض المعركة، وإذا هي أرض منبسطة تسمح بالكرّ والفرّ والمناورة. عبّأت قواتي، وعملتُ كمينين في الخلف، ثم دارت المعركة، واقتتلنا قتالاً شديداً حتى ظنَّ كلُّ فريق منا أنَّ الصبر قد فرغ... كان المجوس يأملون في وصول جيش (بهمن جاذويه) وكنت أدّخر الكمين حتى أنهك العدوّ فيخرج عليه وقد أصابه الإعياء... وعندما رأيتُ الفرسَ قد وهنوا، أطلقتُ الكمينين عليهم من الخلف، من حيث كانوا ينتظرون المدد من (جاذويه) فأذهلتْهم المفاجأة، وكانت هزيمتهم وفرار قائدهم هائماً على وجهه في الصحراء، إلى أن مات عطشاً.

صادق: الله أكبر... كم تحتاج هذه الانتصارات إلى سجدات!.

صادقة: هل ساعدكم العرب المقيمون في تلك الديار يا جدِّي؟

خالد: بل كان نصارى العرب مع المجوس ضدَّنا، وكان ممن قُتل في هذه المعركة: ابنٌ لجابر بن بُجَيْرٍ، وابنٌ لعبد الأسود من زعماء نصارى بكر بن وائل، وكانوا يقاتلوننا في صفوف المجوس.

صادق: ثم ماذا يا سيِّدي القائد العظيم؟

خالد: غضب نصارى العرب من إصابتنا إياهم، واجتمعوا في (أُلَّيْس) من قرى الأنبار في العراق، وبلغ ذلك كسرى، فكتب إلى (بهمن جاذويه) يأمره بالمسير بجيشه إلى (أُلَّيس) ويضمّ إليه من اجتمع فيها من الفرس ومن نصارى العرب، فقدّم (بهمن جاذويه) أمامه القائد (جابان) وأمره بالإسراع إلى (أُلَّيس).

وفي (ألّيس) انضمّ إليه نصارى العرب، وكان عليهم عبد الأسود، وجابر بن بُجَيْر وزهير ومالك ابنا قيس، كما انضمت إليه جموع العجم.

علمتُ بتجمع نصارى العرب، فسرتُ إليهم، ويبدو أن تحرُّك الفرس كان سريعاً، ففوجئت بوصول (جابان) بهذه السرعة.

ولمّـا طلعتُ عليهم وأنـا على تعبئـة، كانـوا يستعدُّون للغـداء، فأمرت بحطّ الأثقـال بسرعـة، ثم وكلتُ مَـنْ يحمي ظهـري حتى لا أفـاجأ بغـدر كغـدر هرمز، وخرجت أمام الصف أنادي:

«أين أبجر؟ أين عبد الأسود؟ أين مالك بن قيس؟».

صادق: وهل استجاب لمبارزتك واحد منهم يا سيّدي؟

خالد: لقد جبنوا جميعاً، إلا مالك بن قيس، فإنه خرج إليّ، فصحت به:

«يا ابن الخبيثة، ما جرَّأك عليَّ من بينهم وليس فيك وفاء!».

صادقة: لم أفهم يا جدِّي، أيّ وفاء تعني؟

خالد: يعني لو أني قتلتُك لا تفي بما أريد... لا تشفي غيظ نفسي.

ثم تقدّمتُ إليه فضربتُه ضربةً قَتَلَتْه.

صادق: الله أكبر... الله أكبر... تابع يا سيِّدي أرجوك.

خالد: ثم زحفنا إليهم، وكانوا قد جلسوا للطعام، فلم ندعهم أن يأكلوا...

كان (جابان) وضع المجوس في القلب، وجعل عبدَ الأسود ومن معه من نصارى العرب في الميمنة وجعل أبجَر ومن معه من نصارى العرب في الميسرة، أما أنا، فقد جعلت المثنى البطل في المقدمة، وجعلت البطل الصنديد عاصم بن عمرو على الميمنة، وجعلت الفارس البطل عديّ بن حاتم الطائي على الميسرة. . . واقتتلنا قتالاً شديداً لم يسبق لنا أن قاتلْنا مثلَه، فنذرتُ إلى الله إن هزمناهم، وانتصرنا عليهم، ألاّ أُبقي على أحد منهم، حتى أُجْرِيَ نهراً من دمائهم.

وصمد المسلمون، وأبلى أصحاب النجدات بلاء عظيماً، حتى خلخلوا صفوف العدوّ الذي لم يلبث أن ولَّى مُدْبِراً، فصحتُ في المسلمين:

«الأسرَ الأسر. . . لا تقتلوا إلا مَنِ امتنع» وتمكَّنَ فرسانُ المسلمين وأهل النجدات من أسر الآلاف منهم، استاقوهم أمامهم كالنِّعاج، فجمعتُهم أمام النهر، وأمرتُ بحبس ماء النهر، ثم بضرب أعناقهم يوماً وليلة، ولكن النهر لم يجر بدمائهم، فقال لي القعقاع العظيم: «لو أنك قتلتَ أهل الأرض لم تجرِ دماؤهم، لأن الدماء لا تزيد على أن تترقرق منذ نُهِيَت عن السيلان، ونُهِيَت الأرض عن نشف الماء، فأرسلْ عليها الماء تبرَّ يمينك». فأمرتُ بإعادة ماء النهر إلى مجراه، فجرى النهر أحمرَ قانياً، وسُمِّي لذلك (نهر الدّم). وكانت على النهر طواحين تدار بالماء، فطحنتْ بالماء وهو أحمر، أقواتَ أكثر من ثمانيةَ عشرَ ألفاً، مدة ثلاثة أيام.

صادقة: وإن كنت أكره اللون الأحمر، فإني لا أملك إلا التعبير عن إعجابي ببطولتك الخارقة يا جدِّي، وبشجاعة أبطالك المغاوير: القعقاع والمثنى وعاصم وعديّ وآلاف غيرهم، رحمهم الله ورضي عنهم.

صادق: هل أَفْلَتَ منهم أحد يا سيِّدي؟

خالد: لم يُفْلِت إلا طويل العمر، لأن فرساننا كانوا يطاردونهم، فيقتلون منهم من يقتلون، ويأسرون من يأسرون.

صادقة: مساكين، لم يأكلوا طعامهم.

خالد: بل هم أوباش، رأوني على تعبئة، وعَصَوْا أميرهم، وجلسوا للطعام،

مستهينين بنا، ومُقْبلين على شهواتهم.

صادق: صدقت يا سيِّدي... وليس للأوباش مكان على هذه الأرض، أو بالأحرى، لا ينبغي أن يكون لهم مكان.

خالد: وكان طعامهم الذي حفلت به موائدهم العامرة ـ لنا... أكلناه هنيئاً مريئاً، بعد قتال مرير... كان عشاء لذيذاً... كانت عواطفي تمور بالفرح والسعادة، وأنا أرى المجاهدين كأنهم في عرس وسمر.

صادقة: أجل يا جدِّي... إنه عرس من أعراس المجد.

صادق: كم قتلتم منهم في هذه المعركة الهائلة يا سيِّدي؟

خالد: سبعين ألفاً أو أكثر.

صادق: الله أكبر... كم أتمنى أن تعود إلى المسلمين اليوم أمجادهم، أو بعض أمجادهم يا سيِّدي، فقد صرنا في حالة يرثى لها.

خالد: الأمنيات بضاعة العاجزين يا صادق... لا بدّ من العمل.

صادقة: صدقتَ يا جدِّي، وصدق شاعرنا الحكيم أحمد شوقي عندما قال:

وما نيلُ المطالب بالتمنّي ولكن تُؤخذ الدنيا غِلابا

خالد (في انتشاء): يا سلام! ما أجمل هذا الكلام!!

وما نيلُ المطالب بالتمنّي ولكن تُؤخذ الدنيا غِلابا

صاحب هذا البيت شاعر... شاعر.

صادق: ثم ماذا يا سيِّدي؟

خالد: ثم طاردت فلولهم التي توجَّهتْ إلى (أمَغِيشيا) فلما علموا بقدومي إليهم، تركوا مدينتهم، وولَّوا هاربين على وجوههم، فأمرت بهدم مدينتهم (أمغيشيا) لأرهب أعداء الله أعداءنا من الفرس ومَنْ خلفَهم ويساندُهم من العرب المشركين والمتنصِّرين، وأرسلتُ بأخبار انتصاراتنا وبالخُمس الذي أفاءه الله علينا إلى الخليفة الصدِّيق.

صادقة: ولمَّا سمع أبو بكر أنباء انتصاراتك يا جدِّي قال في إعجاب:

«لقد عجزت النساء أن يلدن مثل خالد».

خالد: رحم الله أبا بكر، فقد كان عظيماً بين الرجال.

صادقة: وكان أعرفَ الناس بالرجال، وأوفى الناس للرجال.

صادق: ثم ماذا يا سيِّدي؟

خالد: كنَّا في فصل الربيع، فصل فيضان نهري دجلة والفرات، وفيضانهما يغرق الأراضي، فلا تستطيع الإبل السير فيها... فكَّرتُ بأن تكون طريقنا نهرية... جمعتُ السفن، وحملتُ عليها رجالي من المشاة، وأمرت الفرسان بالسير بالقرب منها على الأرض طبعاً، وعلمَ مَرْزُبانُ الحيرة، واسمه (آزاذبه) بما فعلت، فأمر ابنه أن يسدّ قناطر الفرات، ليمنع جريان الماء فيه. وفوجئنا بجنوح السفن، ثم علمت بما دبّره المرزبان، فأخذت كوكبة من فرساني، وفاجأت ابن المرزبان ومن معه في وقت لا يتوقَّعون فيه غارة عليهم، واقتتلنا في موضع اسمه (المقرّ) وأمكنني الله من عنق ابن مرزبان الحيرة، وعندما رأى فرسانه مقتل قائدهم، ولَّوا الأدبار، وفتحنا مياه الفرات، وسارت السفن كما أردنا بفضل الله تعالى.

صادق: فعلاً... عجزت النساء أن يلدن مثلك يا سيِّدي القائد العظيم.

خالد: أمرت الجيش بمتابعة المسير، وقصدتُ بمن معي من الفرسان الأبطال الحيرة، ونزلنا بين الخَوَرْنَق والنجف، فلما علم صاحب الحيرة بمسيرنا إليه، ولّى هارباً، تاركاً الحيرة لأهلها يدافعون عنها... انسحب بعسكره إلى ما وراء الفرات من غير قتال... حاول أهل الحيرة الدفاع عن مدينتهم، وكان قتالهم قتال اليائس المهزوم، ثم طلبوا مني الصلح، فصالحتهم على الجزية... دعوتهم إلى الإسلام، وحاورتهم في هذا، وقلت فيما قلته لهم:

«ويحكم... إن الكفر فلاة (أي صحراء) مُضِلَّة، فأحمقُ العرب مَن سلكها، فلقيه دليلان: أحدهما عربيٌّ فتركه، واستدلّ الأعجميّ».

صادقة: أي طلب من الأعجميّ أن يدلّه.

خالد: وهكذا كان الله ينصرنا في كل معركة نخوضها ضد الفرس... ففتحنا الأنبار وعين التمر ودومة الجندل وسواها من أرض العراق التي كنت أرجو أن

يفتحها الله ويفتح بلاد فارس على يديّ، فقد صارت (المدائن) عاصمة كسرى هدفاً رجوت تحقيقه، لولا أن جاءني أمرُ الخليفة أبـي بكر بالرحيل إلى الشام، لنجدة جيوش المسلمين فيها.

صادقة: قبل أن ننتقل إلى الشام، وفتوحاتك الرائعة فيها، هل تحبّ أن تفرحنا بذكرى حبيبة إلى نفسك في بلاد العراق يا جدِّي؟

تحرّك الجبل الذي كان يحدّثنا، وعلت وجهه ابتسامة آسرة، ثم اعتدل في جلسته، وسرح بفكره، ونظر إلى الأفق البعيد، ثم قال:

ــ كان على (عين التمر) رجل فارسي اسمه (مهران بن بهرام) وكان معه جيش عظيم من الفرس والعرب، وكان على العرب رجل اسمه (عقّة بن أبـي عقّة) وكانت معه جموع هائلة من العرب. وحين سمعوا بمجيئنا إليهم، قال عقّة لمهران:

«إنَّ العرب أعلم بقتال العرب، فدعْنا وخالداً».

فعلَّقت صادقة: مسكين ومغرور وأحمق.

قال خالد رضي الله عنه:

فقال له مهران: «صدقت. أنتم أعلم بقتال العرب».

صادقة: ورّطه الخبيث الماكر.

خالد: ثم قال مهران لعقّة: «دونكموهم. وإن احتجتم إلينا أعنَّاكم».

ازدادت ابتسامة القائد خالد اتساعاً وهو يتابع الحديث:

ــ كانت قوات (عقّة) في العراء، وكانت قوات مهران في (الحصن)... نظرت إلى (عقّة) وهو يعدّل صفوفه، وقلت لفرساني: «اكفوني ما عنده فإني حاملٌ عليه» ثم حملتُ على عقّة وهو يعدّل صفوفه، فاختطفتُه من على جواده، واحتضنتُه، وعُدْتُ به أسيراً، والعسكران في ذهول مما يرون».

فهتفنا أنا وصادقة:

ــ الله أكبر... الله أكبر...

خالد: فما كان من جنوده وجموعه إلا الهرب، والمسلمون يطاردونهم.

صادق: ومهران؟

خالد: عندما علم بالخبر، أخذ جيشه وترك الحصن هارباً، وجاءت فلول (عقّة) ونزلوا (الحصن) وتحصّنوا فيه، وما دَرَوْا أنه سيكون قبرهم.

تنفسّت الصعداء، وأنا أرنو إلى الأفق البعيد، وأتخيل أرض المعركة، وأتخيّل خالداً ينقضّ كالصَّقر الكاسر على فريسته... الله أكبر... لقد عجزت النساء أن تلد خالداً آخر.

رأيت القائد العظيم ساهماً في حزن، فسألته:

ـ ما لك يا سيِّدي؟

ـ لا شيء.

ـ كيف وأنا أرى الحزن في عينيك؟!.

أجاب القائد العظيم وقد عاد من سرحانه:

ـ تذكَّرتُ اتِّهامي عمر بن الخطاب... اتَّهمته ظالماً إيَّاه... ظننته كان وراء نقلي من العراق إلى الشام، حتى لا أفتح العراق، وأفوز بأكاليل الغار، وأن أبا بكر استجاب لضغوط عمر عليه، فعزلني عن العراق، ولكنَّ أبا بكر أمرني بالإسراع إلى الشام، لأكون هناك القائد العام... يعني أنه راضٍ عني وعن قتالي وفتوحي، وليس ساخطاً... صدق الله العظيم: ﴿إنَّ بعضَ الظنِّ إثم﴾.

فقالت صادقة:

ـ إذن... هات حدثنا عن فتوحاتك للشام يا جدِّي القائد العظيم.

تنحنح القائد، ولَمْلَمَ أطرافَ عباءته، وركز قَلَنْسَوَتَه فوق رأسه. ثم قال:

ـ سوف أحدثكم ما اتّسع لحديثي وقتُكم، وراحةُ رؤوسكم وأبدانكم.

فقالت صادقة:

ـ لن نتعب ولن نملَّ من سماع أحاديث البطولة الخارقة إن شاء الله.

وخطر لي سؤال، فتنحنحتُ أنا، مقلِّداً الكبار، ثم سألتُ سيِّدي القائد:

ـ قبل أن تحدّثنا عن فتوحك للشام يا سيِّدي، هل سبق لك أن قاتلت الروم؟

أجاب القائد الفذُّ خالد:

ــ سبق أن قلت لكم: إني قاتلتهم يوم (مؤتة) وكنت يومها جندياً من جنود القائد زيد، ثم جعفر، ثم ابن رواحة، ثم أمّرني المسلمون عليهم، وقد تكسَّرت بيدي ثمانية أسياف، ولم تثبت في يدي سوى صفيحة يمانية.

ــ إذن قاتلت الروم ــ يا سيِّدي ــ وأنت جندي، ثم وأنت قائد في معركة مؤتة، فهل قاتلتَ الروم في غير مؤتة؟

قال القائد العظيم خالد:

ــ أجلْ... قاتلتُهم مع الفرس مجتمعين في معركة (الفراض) الواقعة على تخوم الشام والعراق والجزيرة... الشام والجزيرة كانتا تحت حكم الروم... وأنا في (الفراض)، نُمي إليَّ أنَّ الروم تحالفوا مع الفرس وبعض القبائل العربية التي تنصَّر بعض مشايخها شرقيَّ نهر الفرات، وأنَّهم تحركوا تُجاهنا... لقد تبنَّى الروم كِبْرَ هذا التحدِّي والتحرّش بنا، لأنني كنت توغَّلتُ في بلادهم... على أيّ حال تحاذَيْنا... هم شرقيَّ الفرات وأنا غربيّه... هم تُجاه الجزيرة وأنا تُجاه صحراء السماوة... خيَّروني في أن أعبر النهر إليهم، أو أن يعبروا هم إلينا، فقلت لهم: بل اعبروا أنتم إلينا.

صادقة: ما الحكمة في هذا يا جدِّي؟

خالد: هناك أكثر من سبب... أولاً أريد أن أقطع عليهم خطّ الرَّجعة.

صادقة (مقاطعة): لا تحتاج إلى أيِّ سبب آخر يا جدِّي العظيم!

خالد: وطلبوا مني أن أتنحَّى عن موقعي ليعبروا، فرفضت طلبهم، وقلت لهم:

«اعبروا أسفلَ منا».

فقال بعضهم لبعض، كما علمت فيما بعد:

«احتسبوا ملككم! هذا رجل يقاتل عن دين وعقل وعلم. والله لَيُنْصَرَنَّ ولنُخْذَلَنَّ».

صادقة: إنهم يقاتلون وهم مهزومون من الداخل.

صادق: ثم ماذا يا سيِّدي؟ هل عبروا؟

خالد: طبعاً عبروا أسفلَ منا، ثم اشتبكنا في قتال ضارٍ هو الأول من نوعه من حيث العدو... لأول مرة أقاتل جيشاً مؤلفاً من الروم والفرس والعرب... ونصرنا الله عليهم، فصحتُ في رجالي:

«ألحّوا عليهم، ولا ترفّهوا عنهم» فقتلنا منهم مئة ألف أو يزيدون.

صادقة: الله أكبر... ما أعظم النصر على يد قائد عظيم.

خالد: سوف أذكر لكم أمراً فعلتُه دون أن أستشير أو أستأذن الخليفة.

صادق: ما هو يا سيِّدي؟

خالد: الحج...

صادق: كيف؟

خالد: أقمنا بعد معركة (الفراض) عشرة أيام، ثم أمرت الجيش بالعودة إلى الحيرة، لنتابع فتح بلاد فارس... أمرتُ عاصم بن عمرو أن يكون على رأس الجيش، وجعلت البطل شجرة بن الأعزّ على المؤخرة، وأشعتُ أني في المؤخرة، وخرجت من العراق، إلى مكَّة المكرَّمة أريد الحجّ إلى بيت الله الحرام، فقد تاقت نفسي إلى مكة، إلى الكعبة، إلى عرفات، إلى منى، إلى المزدلفة، إلى كل بقعة طاهرة هناك... وما كان واحد في الجيش إلا يظنني في مؤخرة الجيش، إلا من أعلمتُه من خاصّة رجالي. سلكتُ أقرب طريق من الفراض إلى مكة، طريقاً مستقيماً، وكلّي شوق وحنين إلى بيت الله الحرام، لأقف بين يدي الله تعالى، وفي بيته العتيق، أحمده وأشكره على ما أنعم عليَّ من نصر، وأضرع إليه أن يتجاوز عن خطاياي، وأن يعفو عمَّا يكون قد وقع مني بنية سليمة.

ومسح القائد دمعة نفرت من عينه، ثم حاول أن يتابع حديثه، فلم يستطع، ثم أجهش باكياً، فأجهشنا أنا وأختي نبكي لبكائه، بكاء العبد المُخْبِتِ لله، المجاهد في سبيله، الراجي عفوَه ورضاه، ثم قال:

ــ شغلني الجهاد عن كثير من قراءة القرآن، ومن الصلاة والصيام، فأسرعت إلى بيت الله الحرام، أغسل بدموعي ما علق بالروح من دَرَنٍ، وبالقلب من قسوة.

صادقة: هل كنتَ وحدك يا جدِّي؟

خالد: بل كان معي بعض أصحابـي.

وسكت القائد قليلاً ثم قال:

ــ قطعنا المسافة في أقلّ من أسبوعين، وأدَّيْنا المناسك، ثم عدنا في أقلَّ من أسبوعين أيضاً، والتحقنا بمؤخرة الجيش، ودخلنا (الحيرة) مع دخول جيشي، ونحن محلِّقون، والناس يظنون أنِّي لم أغادر الجيش.

صادقة: يعني عدتَ، يا جدِّي، والتحقتَ بجيشك قبل أن يصل إلى (الحيرة).

خالد: نعم.

صادق: كم المسافة بين (الفراض) و(الحيرة)؟

خالد: حوالي ثلاث مئة ميل.

صادقة: يعني... حوالي... خمس مئة كيلومتر.

صادق: يعني سار الجيش قرابة الشهر، وقطع خمس مئة كيلومتر.

صادقة: والمسافة التي قطعتها، يا جدِّي، بين الفراض ومكة؟

خالد: أكثر من ثماني مئة وخمسين ميلاً بقليل...

صادقة: يعني... حوالي... ألف وستّ مئة كيلومتر.

صادق: وقطَعْتها في أقلَّ من أسبوعين يا سيِّدي؟

خالد: بتوفيق الله تعالى يا بنيّ.

صادق: ولكن... كيف تترك جيشك، يا سيِّدي القائد، وأنت ترى الأعداء يتحالفون لقتالك؟

خالد: لأنني أعرف أنَّ في جيشي رجالاً أبطالاً في مثل كفاءتي.

صادق: هل هناك غير القعقاع يا سيِّدي؟

خالد: وأخوه عاصم بن عمرو التميمي لا يقلّ كفاءة عنه، وهناك عديّ بن حاتم، وجرير بن عبد الله البجلي والأقرع بن حابس والمثنى ومذعور بن عدي وشجرة بن الأعزّ وأبناء مقرِّن وسواهم من القادة الأبطال...

ثم... سبق لي أن تركتهم شهراً عندما ذهبت لنجدة عياض بن غنم الذي

كان يحاصر (دومة الجندل).

صادق: هنيئاً لك برجالك يا سيِّدي، فهم أبطال مغاوير.

صادقة: والخليفة أبو بكر ألم يعلم بحجّك؟

خالد: كان الخليفة الصِّدّيق في الحج، ولكني لم أحاول أن ألقاه، ولم يعلم بحجّي إلا بعد عودتي إلى العراق. وقد غضب عمر بن الخطاب لتصرّفي، وألحّ على أبـي بكر ليعزلني عن قيادة جيش العراق، ولكن الخليفة أبـى ذلك، وقال له: «لا أشِيمُ ــ أي لا أغمدُ ــ سيفاً سلَّه اللَّهُ على الكفار».

صادق: الله أكبر. . . ما أعظم ثقة أبـي بكر رضي الله عنه بك يا سيِّدي.

خالد: ولكنَّ الخليفة عتب عليّ، وأمرني ألاَّ أعود لمثلها أبداً. ثم إنه كتب إليَّ يأمرني باللحاق ببلاد الشام، لأستلم القيادة العامة لجيوس المسلمين هناك، وأقاتل جيوش الروم الذين تكالبوا على المسلمين، وجمعوا جموعهم من كل مكان، ليقضوا على المسلمين، ويستأصلوا شأفتهم في بلاد الشام، وفي المدينة المنوّرة أيضاً.

صادق: هل تحفظ كتاب الخليفة يا سيِّدي؟

خالد: وهل أستطيع أن أنساه، وفيه عتابـي، وأمري بالرحيل؟

كتب إليّ: «سرْ حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنَّهم قد شَجَوْا وأشْجَوْا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلتَ، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع الشّجا من الناس نزعك. فليهنك ــ أبا سليمان ــ النيّة والحظوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنَّك عُجْبٌ فتخسَر وتُخْذَل، وإياك أنْ تُدِلَّ بعمل، فإنَّ الله عزّ وجلّ له المنُّ وهو وليُّ الجزاء».

صادق: كلام رائع، وإن كنتُ لم أفهم معنى الشجا.

صادقة: الشجا: الغصص. ومعنى: (قد شَجَوا وأشجَوْا) أنَّ المسلمين ضاقوا بعدوهم، وضيّقوا عليه، حتى كان بعضهم لبعض كالشجا في الحَلْق، وأنَّ جدّي خالداً هو القائد المناسب للقضاء على الروم.

خالد: صدقتِ يا ابنتي. وكان الخليفة الصدّيق قال لجلسائه:

«واللَّه لأُنْسِيَنَّ الرومَ وساوسَ الشيطانِ بخالدِ بن الوليد».
صادق: وقد كان.
صادقة: والآن... أريد أن أعرف كيف سرتَ من العراق إلى اليرموك يا جدِّي.
خالد: أولاً: استخلفتُ المثنى بن حارثة الشَّيْباني على العراق.
ثانياً: قسمتُ جيشي قسمين، أبقيتُ نصفه بقيادة المثنى في العراق، وسرت بالنصف الثاني، حسب أمر الخليفة، ثم سلكت أقصر طريق آمن ليست فيه مقاومة كبيرة، أعني طريق (الحيرة ــ دومة). وكان المثنّى يصحبني، حتى إذا وصلتُ إلى (قُراقر) قلت له:
«ارجعْ، رحمك الله، إلى سلطانك، غيرَ مقصِّر ولا وانٍ» فرجع المثنَّى إلى (الحيرة) لينظم جيشه من جديد.
صادق: كم كان عدد جيش المثنَّى يا سيِّدي؟
خالد: كان جيشنا عشرين ألفاً، أخذت عشرة آلاف، وأبقيتُ له عشرة آلاف.
صادق: نعمْ يا سيِّدي... نريد أن نسمع منك حديث سرعتك الخاطفة إلى الشام.
خالد: قلت لأصحابـي:
«كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم، فإني إن استقبلتُها حَبَسَتْني من غياث المسلمين».
فقالوا لي: «لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش، إنما يأخذه الفذُّ الراكب، فإياك أن تغرّر بالمسلمين».
صادق: فماذا فعلت يا سيِّدي؟
خالد: لم أكن لأغرِّر بالمسلمين، فهم مني وأنا منهم، حياتي في حياتهم، وموتي في هزيمتهم لا سمح الله، ولذلك، احترمتُ الفكرة، وحمِدت لأصحابها حرصهم على جيش المسلمين، أملِ المستضعفين في هذه الحياة.
صادق: كيف؟

خالد: جيشي في رأيي وفي الحقيقة والواقع كالرجل الفذّ... كالراكب الواحد، فهو كتلة واحدة ذات أرجل ورؤوس وأيدٍ، تسير كما أسير، وتفكّر بما أفكر، وتحمل السيوف التي أحمل، وعلى هذا الاعتبار سلكت الطريق الذي لا يحمل الجيوش الضعيفة المهزومة... الطريق الذي يسلكه الراكب الفرد كجيش المسلمين الذي قاتل معي أربعة عشر شهراً.

صادق: يعني؟

خالد: يعني... تركت الطرق المعروفة التي يسلكها الناس، فقد تعوق حركتي بما قد يظهر فيها من مقاومات، كما أن مسيري سيكون مكشوفاً للروم، وأنا أريد الوصول بأسرع وقت، كما أريد مفاجأة الأروام، لأباغتهم، وأَفُتَّ في عضدهم.

سلكت طريق الشمال، وأوغلت في البر، فاجتزتُ وادي حوران إلى (سُوى) (فالكواثل) فـ(تدمر) فـ(القريتين) أي وصلت إلى بلاد الشام، وتابعتُ طريقي إلى اليرموك، حيث تحشُّدُ جيوش المسلمين وجيوش الروم.

صادق: عفواً سيِّدي القائد... لقد أوجزت واختصرتَ كثيراً.

فابتسم القائد الفذُّ ابتسامة عريضة، ثم قال وهو يرمقني وصادقة:

خالد: فهمت... تريدون الحديث عن الرحلة بالتفصيل المملّ، أليس كذلك يا صادقة؟

صادقة: بلى يا جدِّي القائد العظيم.

خالد: أمرني الخليفة أن أسرع لنجدة المسلمين وقيادتهم في الشام، وأن أتخفّف من أحمالي وأثقالي، وأن أسرع بأهل القوة من رجالي، ولهذا فإننا لم نصحب معنا نساءنا وأولادنا، وإنما أعدناهم إلى مواطنهم، ولمّا عزمتُ على المسير قلت لرجالي الذين قد يتخوّفون من سلوك الطريق الصعب الذي ذكره لي دليلي (رافع بن عميرة الطائي):

«لا يختلفنَّ هَدْيُكم، ولا يضعفنَّ يقينُكم، واعلموا أنَّ المعونة تأتي على قدْر النيّة، والأجرُ على قدر الحِسْبَة، وأنَّ المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء، يقع فيه

مع معونة الله له».

صادقة: ما أروع هذا الكلام، وما أعمق هذا الإيمان يا جدِّي!

صادق: كيف كان وقعُ هذا الكلام الجميل عليهم يا سيِّدي؟

خالد: قالوا لي: «أنت رجل قد جمعَ اللَّهُ لك الخير. فشأنك».

صادق: ثقة رائعة.

خالد: وأمرت الدليل أن ينطلق بالناس، فقال:

«إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأنفال. والله إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه. إنَّها لخمسُ ليالٍ لا يصاب فيها ماء».

فأمرتُ أصحابي أن يستكثروا من الماء، وأمرتُ صاحب كلّ خيل أن يُعِدَّ لها الماء بقدر ما يسقيها، وجمعتُ عدداً من الإبل السِّمان فأظمأتُها، حتى إذا أجهدَها العطشُ أوردتُها الماءَ علَلاً بعد نَهل، فلما امتلأت ريّاً، صَرَرْتُ آذانَها، وشددتُ مَشافرَها، حتى لا تجترّ.

ثم انطلقت بالجيش، أَنزلُ كلَّ يوم مرة، لنأكلَ ونشرب، ونَشُقَّ بطونَ عشرة من الإبل، ونخرج الماء منها، ونسقي الخيل.

وعندما توقَّفَ القائد الفذُّ عن الكلام قليلاً، لم أنتبه إلى أنه قد تعب أو أنه يريد التقاط أنفاسه، فصحت:

ــ أرجوك يا سيِّدي أن تتابع حديثك.

فابتسم القائد، وتابع حديثه قائلاً:

ــ وهكذا تابعنا سيرنا أربعة أيام، نقطع المفاوز، حتى إذا كان اليوم الخامس ناديت الدليل، وقلت له:

ــ ويحك يا رافع، ما عندك؟

وكان رافع أرمد، فأدار رأسه يمنةً ويسرةً ثم قال:

ــ أيها الناس. انظروا عَلَمَيْنِ (أي جبلين) كأنهما ثَدْيان.

فلما أتينا التلّين وقف رافع عليهما وقال:

«انظروا. هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل؟».

قالوا: ما نراها.
قال: فتّشوا عنها.
فلمّا وجدناها كبّرنا وكبّر معنا رافع، ثم قال:
«احفروا في أصلها».
فحفروا، فنبع الماء من عين، فشربنا حتى ارتوينا. فقال رافع:
«واللَّهِ ما وردْتُ هذا الماءَ قطُّ إلا مرة واحدة مع أبي وأنا غلام».
فهتفتُ أنا وأختي:
ـ الله أكبر... الله أكبر...
خالد: ثم تابعنا مسيرَنا، نقاتل مَن يعترض طريقنا، أو مَنْ نخاف منه غدراً، ونصالح من يطلب الصلح من أهل المدن والبلدات التي نمرّ بها، إلى أن وصلنا إلى مكان تحشُّد المسلمين في اليرموك.
صادق: وكان وصولك مفاجأة لهم، أليس كذلك يا سيِّدي؟
خالد: كانت مفاجأة، لأنهم ما كانوا يظنون أنني سأقطع الطريق بهذه السرعة.
صادق: هل سبق لك أن كاتبتَهم بقدومك يا سيِّدي؟
خالد: أجل... عندما مررت بعين التمر، بعثتُ عَمْرَو بن الطفيل بكتابٍ إلى المسلمين قلت فيه:
«بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد، إلى مَنْ بأرض العرب من المؤمنين والمسلمين.
سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد:
فإني أسأل الله الذي أعزَّنا بالإسلام، وشرَّفنا بدينه، وأكرمنا بنبيِّه محمد صلّى الله عليه وسلم، وفضَّلنا بالإيمان، رحمةً من ربِّنا لنا واسعة، ونعمة منه علينا سابغة، أن يتمَّ ما بنا وبكم من نعمته. واحمدوا الله عباد الله يزدْكم، وارغبوا إليه في تمام العافية يُدِمْها لكم، وكونوا على نعمه من الشاكرين.
وإنَّ كتاب خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلم أتاني يأمرني بالمسير إليكم،

وقد شَمَّرْتُ وانكمشت (أي أسرعت) وكأنَّ خيلي قد أطلَّت عليكم في رجال، فأبشروا بإنجاز موعود الله وحسن ثوابه.

عصمنا الله وإياكم بالإيمان، وثبَّتنا وإياكم على الإسلام، ورزقنا وإياكم حُسْنَ ثواب المجاهدين، والسلام عليكم».

صادقة: رائع... رائع... رائع جدّاً يا جدِّي القائد.

صادق: والقائد أبو عبيدة؟ هل كان آخر من يعلم؟

خالد: هل تظنُّ ذلك يا صادق؟

لقد كتبتُ كتاباً خاصّاً للقائد التَّقيّ النّقيّ أبـي عبيدة رضي الله عنه وأرضاه. قلت فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. لأبـي عبيدة بن الجراح، من خالد بن الوليد.

صادقة: يا سلام! ما أعظم هذا الأدب... لأبـي عبيدة من خالد... تقدّمه على نفسك يا جدِّي، مع أنك القائد.

خالد: أتابع الرسالة، فاسمعوها ولا تقاطعوني ولا تُطْروني أكثر مما أطريتموني.

كتبت إلى أبـي عبيدة:

«سلام عليك. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أمَّا بعد:

فإني أسأل الله لنا ولك الأمنَ يوم الخوف، والعصمةَ في دار الدنيا. لقد أتاني كتاب خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلم يأمرني بالمسير إلى الشام، وبالمقام على جندها، والتولّي لأمرها. ووالله ما طلبتُ ذلك، ولا أردتُه، ولا كتبتُ إليه فيه. وأنت ــ رحمك الله ــ على حالك التي كنتَ بها، لا يُعصى أمرُك، ولا يُخالف رأيُك، ولا يُقْطَعُ أمرٌ دونك، فأنت سيِّد من سادات المسلمين، لا يُنكر فضلك، ولا يُستغنى عن رأيك.

تمَّم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان، ورحمنا وإياك من عذاب النار، والسلام عليك ورحمة الله».

صـادق: الله أكبر... مـا أروع هـذه الرسـالة!... ولكـنْ... ألـم يـرسـل

الخليفة رسالة إلى أبـي عبيدة يا سيِّدي؟

خالد: وهل هذا سؤال يا صادق؟ كيف يؤمّرني عليه، ولا يُعْلمه بذلك؟ لقد كتب الخليفة الصّديق إليه:

«سلام الله عليك. أمّا بعد:

فقد ولّيتُ خالد بن الوليد قتال العدوّ في الشام، فلا تخالفْه، واسمَعْ له وأطعْ. فإني لم أبعثه عليك ألاَّ تكونَ عندي خيراً منه، ولكني ظننتُ أنَّ له فِطنةً في الحرب ليست لك. أراد الله بنا وبك خيراً، والسلام».

صادق: وماذا كان ردُّ الفعل عند أبـي عبيدة يا سيِّدي؟

خالد: كان أبو عبيدة وجيشه في الجابية عندما أتاهم عمرو بن الطفيل بالرسالتين، قرأ عمرو كتابـي إلى المسلمين، وسلَّم أبا عبيدة كتابـي إليه، فلما قرأه قال: «بارك الله خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلم فيما رأى، وحيَّا خالداً بالسلام».

كما فرح المسلمون عندما قرأ عمرو كتابـي عليهم، وإن كان بعضهم حزن لعزل أبـي عبيدة عن القيادة العامة، لشدَّة حبهم له، ووثوقهم بدينه، وتقواه.

صادق: هل تذكر لنا المدن والبلدات التي فتحتَها في طريقك إلى الشام يا سيِّدي؟

خالد: دخلتُ (سُوى) قبيل الصبح، فأغرت على أهلها فأذعنوا، إذ لم يكونوا يتوقّعون إغارتنا عليهم من الجهة التي جئناهم منها، ولا في الوقت الذي صبّحناهم فيه، كما سلَّم أهل (تدمر) بعد مقاومة يسيرة، وصالحتُ أهل (قُصَم) ثم انحدرتُ إلى (أذرعات) وأغرت على غسان بمرج راهط في الغوطة شرقيَّ دمشق، ثم سرت حتى نزلتُ على قناة (بصرى الشام) ومنها انطلقت إلى اليرموك.

صادق: على رِسْلِك يا سيِّدي. . . أليس هناك ما يثيرنا أنا وأختي؟

فتبسم القائد وقال:

ــ الإثارات كثيرة. . . منها مثلاً أننا عندما مررنا بـ(تدمر) تحصَّنَ فيها أهلها، فحاصرتهم، ولكنِّي كنتُ في عجلةٍ من أمري، فقلت لهم:

«والله لو كنتم في السحاب لاستنزلناكم ولَظَهرنا عليكم، وما جئناكم إلا ونحن نعلم أنكم ستفتحونها لنا. وإنْ أنتم لم تصالحوني هذه المرة، لأرجعنّ إليكم لو قد انصرفتُ من وجهي هذا، ثم لا أرتحل عنكم حتى أقتل مقاتلتكم، وأسبي ذراريكم».

صادقة: الله أكبر... من يقوى على هذا التهديد والوعيد يا جدِّي؟

خالد: ثم ارتحلتُ عنهم بجيشي... ولكن عقلاءهم فكروا في الأمر وتشاوروا، ثم قال بعضهم لبعض: «لا نرى إلا أن هؤلاء القوم الذين نزلوا بكم، هم الذين كنا نتحدث أنهم يظهرون علينا، فافتحوا لهم وصالحوهم» ثم انطلقوا خلفي، وكلّموني في هذا، فرجعتُ إليهم، ففتحوا مدينتهم، وصالحوني.

صادق: رائع... رائع جداً... ثم ماذا يا سيِّدي؟

خالد: لبثت بمرج راهط قليلاً، ثم بعثت بالأخماس إلى الخليفة، ثم خرجت إلى قناة بصرى، ومنها إلى (الثنيّة) فوقفتُ عليها، ونشرتُ رايتي السوداء (العُقاب) التي كانت لرسول الله صلّى الله عليه وسلم، فسُميت (ثنية العُقاب) ثم سرتُ بجيشي أمام الباب الشرقي لدمشق، ونزلتُ ديراً هناك عُرف فيما بعد باسم (دير خالد) فأخرج لي أسقف دمشق نُزُلاً وخدمة أراد أن يحيّيني بها، وقال لي: «احفظ لي هذا العهد» فوعدتُه بذلك، ثم سرتُ حتى أتيتُ أبا عبيدة بالجابية، ومنها سرنا بجنودنا إلى بصرى.

صادق: وكيف كان لقاؤكما يا سيِّدي؟

خالد: لقاء من ربط الله قلوبهم بحبِّه وحبِّ نبيه صلّى الله عليه وسلم.

صادقة: هل تحدثنا عن معركة اليرموك يا جدِّي؟

خالد: أحدّثكم عن كلّ شيء تحبّونه، إذا اتَّسع وقتكم وراحة أبدانكم وقلوبكم وأعصابكم وعقولكم... قلتُ لكم هذا من قبل، وأعيده الآن.

صادق: تتَّسع إن شاء الله لحديث الأجداد والأمجاد، لعلها تثير فينا عزَّة وكرامة ترتفعان بنا عن الواقع الذليل الذي نعيشه منذ قرون.

خالد: هذا لأنكم تركتم الجهاد، ورضيتم بالعيش في هوان، وأخلدتم إلى الأرض.

وصعَّدَ القائد أنفاسه الحرّى ثم قال:

ــ يبدو لي أنكم فهمتم الإسلام فهماً قاصراً، وما عرفتم أن ذروة سنام الإسلامِ هو الجهاد.

صادق: ابتُلينا ــ يا جدِّي العزيز ــ بناس يكثرون من الكلام، ويُقِلُّون من العمل، لا عمل لهم إلا الجلوس في القهوات، وشرب الشاي وغير الشاي، وتدخين السكاير والنراجيل، والثرثرة بكلام فارغ يسمّونه التنظير، ولو طُلب من أحدهم أن يضحي ببضعة قروش لأمسك يده ولم يدفع، ولو طُلب من أحدهم أن يبذل شيئاً من جهده ووقته للصالح العام، لامتنع، والغريب في الأمر، أنَّ أولئك المنظّرين الثرثارين لا يعجبهم العجب، ولا الصيام في رجب... إنهم يبخلون حتى بالترحُّم على الشهداء الذين ضحَّوا بكلِّ شيء، ولم يبخلوا بدمائهم في سبيل الله... إنهم ينتقدونهم، وربما وصفوهم بالجنون وبقلة العقل، مع أنَّهم كانوا في طهر الملائكة، لم يأخذوا من دنياهم سوى العمل الصالح، والذكر الحسن... زهدوا بكل شيء، وتركوا للمنظِّرين الثرثارين المال والجاه والمنصب وكلَّ شيء مما يقتتل عليه أولئك الفارغون التافهون الذين يزعمون أنهم صفوة الناس، ونخبة البشر... تركوا لهم كلَّ شيء حتى الصعود على جثثهم التي كانت في طهر أرواحهم.

ولم أستطع الاستمرار في التعبير عن المرارة التي أحسُّها في فمي ودمي وحياتي، كلما سمعتُ واحداً من أولئك التافهين الراقصين على جراح الشهداء والمعذَّبين من المجاهدين، فتلجلجَ لساني وتعثّر بالكلمات، وخشيت أن أكون على طريق الذين أنتقدهم، فأمسكتُ بلساني، ومسحتُ دمعة ترقرقتْ في عيني، فقالت صادقة:

ــ كم قلت لك يا أخي: ابتعدْ عن أولئك الحمقى الذين يظنّون أنهم بثرثرتهم يُحْسنون صُنْعاً، ولكنك لم تسمع كلام أختك الصغيرة.

كنتُ أسترق النظر إلى القائد الهائل خالد، فرأيته مهتمًا بما أقول، ثم بما قالته صادقة، ولما رآنا نمسك عن الكلام قال:

ــ ما هذا الذي أسمع؟

كيف سمحتم لأولئك الثرثارين يضيعون أوقاتكم وأعماركم في الكلام الفارغ؟

آه لو كانوا في زماني، لَسُقْتهم إلى الجهاد سَوْقَ الإبل، ولما تركتهم يفسدون عقول الناس، ويخدشون مروءاتهم بالتسكّع وقتل العمر في ما لا جدوى منه تعود على المسلمين.

صادقة: على أيّ حال دعونا منهم... يكفي أنهم يفسدون عقول من يجلس إليهم، كما يفسدون ضمائرهم وأخلاقهم، ولنعدْ إلى حديث الأمجاد التي قد يسخر منها أولئك الأوغاد.

خالد: لا بأس... وأعانكم الله عليهم، وأبعد أذاهم عن هذه الأمة التي كتب الله عليها الجهاد، منذ صدع رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم بكلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

صادقة: إذن... هاتِ حديثك الذي هو أحلى من العسل المصفّى.

خالد: تعلمون أن الخليفة الصّدّيق كان أرسل أربعة جيوش لفتح بلاد الشام، وعندما وصلنا ــ أبو عبيدة وأنا ــ إلى اليرموك، كان فيها شُرَحْبِيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبـي سفيان، مع جيوشهم الثلاثة، كما كان معهم عكرمة بن أبـي جهل. وقد فرحوا جميعاً بقدومي والحمد لله.

لم أضيّع وقتاً، فشرعتُ في تعبئة الجيش على شكل كراديس، في كلّ كُرْدُوسٍ ألف رجل، فكان عندي ستة وثلاثون كردوساً... جعلتُ القلب كراديس، وجعلت عليه أبا عبيدة بن الجراح، وجعلتُ الميمنة كراديس، وأَمَّرْتُ عليها عمرو بن العاص، وفيها شرحبيل بن حسنة، وجعلت الميسرة كراديس، وأمّرت عليها يزيد بن أبـي سفيان، ثم جمعتُ القادة وقلت لهم:

«هل لكم يا معشر الرؤساء في أمرٍ يعزّ الله به الدين، ولا يدخل عليكم معه

ولا منه نقيصة ولا مكروه؟ إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي. أخلصوا جهادكم، وأَريدوا الله بعملكم، فإن هذا يومٌ له ما بعده.

هلمُّوا فإن هؤلاء (الروم) تهيَّؤوا، وهذا يومٌ له ما بعده. إن رددناهم إلى خندقهم اليوم، لم نزل نردُّهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها».

صادق: الله أكبر... هذه الكلمات لها ما بعدها أيضاً في نفوس السامعين والقارئين إلى يوم الدين.

صادقة: معنى هذا، أن عدد جيش المسلمين ستة وثلاثون ألف مجاهد.

خالد: أجل.

صادق: والروم؟

خالد: لا يقلّون عن مئتين وأربعين ألف مقاتل، وقد خرجوا علينا في تعبية لم نر مثلها من قبلُ ومن بعدُ.

صادق: وكذلك أنت يا سيِّدي خرجت على الناس في تعبية لا عهد لهم بها.

خالد: وجعلتُ أبا الدرداء قاضياً، وكان عالماً فقيهاً وحكيماً. وجعلت أبا سفيان قاصّاً.

صادق: ما معنى القاصّ هنا يا سيِّدي؟ وما مهمَّته؟

خالد: كان يخطب في الجنود ويحمّسهم، ويقصّ عليهم ما يثبّت أقدامهم. كان يهتف ونحن نقاتل الروم: «يا نصر الله اقتربْ» وكان القارىء: المقداد بن الأسود الكِنْديّ الصحابـيّ الجليل.

صادق: ماذا كان يقرأ؟

خالد: لقد سنَّ لنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم سُنَّةً في القتال، أن يقرأ المجاهدون سورة الجهاد عند اللقاء.

صادق: أنا لم أسمع بسورة الجهاد يا سيِّدي.

صادقة: يعني سورة الأنفال يا أخي.

صادق: وأنت يا سيِّدي، ألم تخطب في المجاهدين؟

خالد: بلى... كنت أسير بين الصفوف، وأقف عند أصحاب الرايات، وأقول فيما أقول:

«يا أهل الإسلام، إنَّ الصبر عزّ، وإنَّ الفشل عجز، وإنكم مع الصبر تُنْصَرون، فإنَّ الصابرين هم الأعلون، وإنه إلى الفشل ما يَحُوْرُ المبطل الضعيف، وإنَّ المحقَّ لا يفشل، يعلم أنَّ الله معه، وأنه عن حرم الله يذبُّ، وعنه يقاتل، وأنه إنْ قدِمَ على الله أكرمَ منزلته، وشكر سعيَه، إنه شاكرٌ يحبّ الشاكرين».

صادقة: بوركت يا جدِّي... ولكن... ما يفعل ستة وثلاثون ألفاً مع مئتين وأربعين ألفاً وأكثر؟

خالد: كذلك سمعتُ رجلاً من المسلمين يقول: «ما أكثرَ الرومَ وأقلَّ المسلمين!».

فزجرتُه قائلاً له: «بل قل: ما أقلَّ الرومَ وأكثرَ المسلمين! إنما تكثر الجيوش بالنصر، وتقلُّ بالخذلان، لا بعدد الرجال!! واللّهِ لَوَدِدْتُ أن فرسي الأشقر بريءٌ من توجِّيهِ، وأنهم أضعفوا ضعفهم».

صادق: لم أفهم العبارتين الأخيرتين.

صادقة: يعني أن جدِّي القائد خالداً كان يتمنى لو يكون فرسه الأشقر بريئاً من الألم الذي ألَمَّ بحافره، وزاد عدد الروم.

صادق: الله أكبر... كلُّ هذه الثقة بفرسك يا سيِّدي؟

خالد: لو رأيتَه يا صادق وهو يصول ويجول ويقاتل معي ولا يتعب، لقلتَ مثل قولي فيه..

صادق: وكأني أراك تستهين بالروم وجموعهم الكثيفة يا سيِّدي؟

خالد: لقد كانوا أهون عليّ من الذُّباب!.

صادقة: لا بد أن يكونوا أهونَ عليك من ذباب يا جدِّي، وإلا... ما كنت تطير إليهم بجيشك من العراق، وتقطع الصحراء بسرعة قياسية، جعلتْك تقطع مسيرة يومين في يوم واحد.

صادق: ثم ماذا يا سيِّدي القائد؟

خالد: اخترت من فرساني مئة فارس للحظة الحاسمة، ووضعت نساء المسلمين خلف الصفوف، وأعطيتهنّ السيوف، وأمرتهنَّ بقتل من يحاول الهرب من المسلمين، كما أمرتهنَّ بتحريض الرجال على القتال، وبتثبيتهم في المعركة الطاحنة التي ستكون معركة فاصلة، لأن الصبر على القتال، والثبات في الميدان، من أهمّ عوامل النصر، كما طلبت منهنّ الدعاء لنا بالنصر، لأنَّ النصر من عند الله، يؤتيه من يشاء، ممن يراه أهلاً له.

صادقة: طبعاً يا جدِّي، فللنصر رجاله، وليس كلُّ من قاتل استحق النصر.

خالد: وقبيل بدء القتال خرج قائد الروم أمام الصفوف، وطلب أن أخرج إليه، فأسرعت إليه، والتقينا على جوادينا أمام العسكرين.

ظننتُه خرج مبارزاً، وإذا هو قد خرج محاوراً.

قال لي (ماهان) وهذا هو اسمه:

«قد علمنا أنه لم يخرجكم من بلادكم إلا الجهد والجوع... فإن شئتم أعطيتُ كلَّ واحد منكم عشرة دنانير، وكسوة وطعاماً، وترجعون إلى بلادكم، وفي العام القادم أبعث إليكم بمثلها».

لاحظتُ أن القائد خالداً قد بلغ منه الغضب مبلغه، وهو يروي كلام قائد الروم، فأردتُ أن أخفّف عنه بعض ما يجد، فسألته:

ــ وبماذا أجبتَ ذلك الروميّ الذي تجرأ على مخاطبتك بهذه الوقاحة يا سيِّدي؟

أجاب القائد خالد، وهو يكزّ على أسنانه من شدة الغيظ، وكأنه يخاطب الروميّ لساعته:

ــ قلت له: «إنه لم يخرجنا من بلادنا الجوع كما ذكرتَ، ولكننا قوم نشرب الدماء، وقد علمنا أن لا دمَ أشهى ولا أطيبَ من دم الروم، فجئنا لذلك».

فهتفنا أنا وصادقة:

ــ الله أكبر... الله أكبر...

ــ لقد حطمت معنوياته يا سيِّدي بهذه الكلمات الصاعقة.

وقالت صادقة:

ــ وبهذه الكلمات الهائلة يا جدِّي الهائل، دَقَقْتَ أَوَّلَ مسمار في نعش الروم، وكَسَبْتَ الجولة الأولى من المعركة.

خالد: كان على مُجَنَّبَتَي القلب، البطلان العظيمان: عكرمة بن أبـي جهل، والقعقاع، فأمرتُهما أن يُنْشِبا القتال، والتحم الجيشان، وكانت صدمة الروم قوية كادت تزحزح المسلمين عن مواقعهم، فشددتُ برجالي على الروم شدَّةً ضعضعتْهم وخلخلتْ صفوفهم المحاصرة، فأمرت رجالي أن يفتحوا طريقاً لخيولهم الهاربة، وعليها فرسانهم الذين نجوا بأرواحهم خارجين إلى الصحراء، تاركين مشاتهم لسيوف المسلمين، تحتزُّ رقابَهم، وتنزل بهم أشنع هزيمة أصيبوا بها، بعد قتال ضارٍ جرّبوا فيه سيوف المسلمين للمرة الثانية بعد معركة (أجنادين)، وأصبحتُ في رواق قائد الروم، وطار فرسانُنا يطاردون الهاربين الناجين من المعركة.

قاطعتُ القائد المظفَّر بقولي:

ــ على رِسْلك يا سيِّدي.

خالد: ماذا تريد؟

صادق: أريد وصفاً مفصَّلاً للمعركة، فمن غير المعقول أن تختصر معركة من أهمّ المعارك الفاصلة في التاريخ، ببضع كلمات. أليس كذلك يا صادقة؟

صادقة: بلى يا جدِّي العزيز... نريد وصفاً حيّاً، وإلا، فنحن نعرف أنكم انتصرتم على الروم في هذه المعركة التاريخية الفاصلة. أليس كذلك يا صادق؟

صادق: بلى يا سيِّدي، فهل تبخل على حَفَدَتِك بهذا؟ نريد ــ على الأقلِّ ــ أن تشفي صدورَ المؤمنين، فإنَّ الانكسارات والهزائم وأنهار الدماء المسلمة التي تسيل في فلسطين والبوسنة وأفغانستان، والشيشان وفي كثير من أنحاء العالم، وعلى مدى عشرات السنين ــ أقول: لعلك بحديثك هذا، تخفّف من أحزاننا.

فصاح القائد العظيم:

ــ أنا لا أريد أن أخفّف من أحزانكم... أنا أريد إضرام الأحزان في قلوبكم... أريد إحراق أعصابكم... أريد أن أستثير نخوات الرجال بهذه الأحاديث.

صادقة: إذن. . . هات حديثك مفصّلاً يا جدِّي الحبيب.

خالد: كما تحبّون. .

قلت لكم: كانت جموع الروم أضعاف جيش المسلمين، ولكننا نمتلك سلاحاً لا يعرفونه. . . سلاح الإيمان بالله، وبموعود الله، وبنصر الله، فكنا نقاتل عن عقيدة تملأ كياننا، فنزداد بها قوة على قوة، . . . كانت بُشْريات الرسول القائد تتخايل لنا. . . لقد بشّرنا بفتح المدائن، عاصمة كسرى، كما بشّرنا بفتح القسطنطينية وروما. . . هذه عقيدة نعتقدها، ونقاتل دونها.

سار جيش الروم من أنطاكية، وكان فيه القسس والرهبان والبطارقة والصُّلْبان، وتجمعوا بجموعهم الكثيفة في اليرموك، ثم إنهم صفُّوا جموعهم عشرين صفاً لا يُرى طرفاها من طولها، ثم أخرجوا إلينا خيلاً أضعاف خيلنا، بل أضعافاً مضاعفة، فلما اقتربت خيلهم من خيلنا، خرج بطريق من بطارقتهم وشجعانهم يطلب المبارزة.

فقلت لرجالي:

ــ أما لهذا رجلٌ يخرج إليه؟ ليخرجنَّ إليه بعضكم، أو لأخرجنّ أنا إليه.

فتقدَّم عددٌ من الأبطال يريدون مبارزته، غير أني اخترت البطل المقدام قيس بن هبيرة، وقلت له:

«إني أرجو إنْ أنت خرجت إليه أن تقتله».

فخرج قيس وهجم على العلج كالصاعقة، وضربه بالسيف ضربة على هامته، فقطع ما عليه من سلاح، أعني المِغْفَر، وفَلَق هامته، وسقط الرومي، أمام فرسه متضرِّجاً بدمائه، فكبّر المسلمون، وانكسرت نفوس الروم، فصحتُ بأعلى صوتي:

ــ أيها المسلمون، ليس بعدما ترون إلا الفتح، فاحملْ عليهم يا قيس.

فحمل قيس، وحملتُ معه بفرساني الميامين وأنا أصيح فيهم:

ــ احملوا عليهم يا رجال، فوالله لا يُفْلحون وأوّلهم فارس متعفّر في التراب.

فوالله ما هي إلا ساعة، وقد كشفنا خيلهم، وألحقناهم بالصفوف التي كانت ترقب المعركة عن كثب.

صادق: الله أكبر... هذا ما كنا نرغب في سماعه يا سيِّدي.

خالد: وفوجئت بفارس يبرز من بين صفوف الروم، يدعوني للبروز إليه، فبرزت إليه... إنه لم يكن يريد القتال، بل كان يريد الحوار... قال لي:

ـ يا خالد... اصدقني ولا تكْذِبني، فإنَّ الحرَّ لا يكذب.

خالد: هاتِ ما عندك، فإنَّ الكذب في ديننا حرام، ولا يفتري الكذب إلا غير المؤمنين من الكفار والمشركين.

جرجه: أنا جرجه من فرسان الروم، جئت سائلاً ومستوضحاً:

هل أنزل الله على نبيِّكم سيفاً من السماء، فأعطاك إياه، فلا تسلُّه على أحد إلا هزمتَه؟!.

خالد: لا.

جرجه: فبم سُمِّيتَ سيفَ الله؟

خالد: إنَّ الله بعث فينا رسوله، فمنَّا مَنْ صدَّقه ومنَّا مَنْ كذَّب، وكنتُ فيمن كذَّب، حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام، وهدانا برسوله، فبايعناه، فدعا لي الرسول وقال لي: أنت سيف من سيوف الله. فهكذا سُمِّيت سيفَ الله.

جرجه: وإلامَ تدعون؟

خالد: إلى توحيد الله، وإلى الإسلام.

جرجه: هل لمن يدخل في الإسلام اليوم، مثلُ ما لكم من المثوبة والأجر؟

خالد: نعمْ وأفضل.

جرجه: كيف وقد سبقتموه؟

خالد: لقد عشنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ورأينا آياته ومعجزاته، وحُقَّ لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا، أن يُسْلِمَ في يُسْر... أمَّا أنتم، يا مَنْ لم تَرَوْه، ولم تسمعوه، ثم آمنتم بالغيب، فإنَّ أجركم أجزلُ وأكبرُ، إذا صَدَقْتُمُ اللَّهَ في سرائركم ونيَّاتكم.

وسكت القائد المظفَّر خالد لحظة ثم قال:

ـ جاءنا جرجه عند غروب الشمس، فلم يمكث إلا يسيراً حتى حضرت صلاة المغرب، فقام المسلمون إلى الصلاة، وقام جرجه ينظر إلى صلاتنا.

صادقة: ألم تصلُّوا أمامهم صلاتي الظهر والعصر؟

خالد: صلَّيناهما إيماء، لأن المعركة لم تكن تسمح لنا بالصلاة العادية، أو بصلاة الخوف.

صادق: نعمْ يا سيِّدي... نحن نستمع إلى حديثك مع جرجه أو جورج كما ندعو نصارى اليوم الذين يتسمَّوْنَ باسم جورج، لا جرجه.

خالد: لقد بهرته صلاة المسلمين، كما بهره دعاؤهم وتضرُّعُهم إلى الله.

ثم أقبل إليّ جرجه وقال:

ـ بالله لقد صَدَقْتَني ولم تخادعني ولم تتألَّفْني.

خالد: بالله لقد صَدَقْتُك وما بي إليك ولا إلى أحد منكم حاجة، وإنَّ الله لَوَليٌّ ما سألتَ عنه.

جرجه: صَدَقْتني يا خالد.

خالد: ثم قلب ترسه، ومال معي، وقال لي: علِّمني الإسلام. فملتُ به إلى فسطاطي، وأمرتُه أن يغتسل فاغتسل ثم صلَّى ركعتين، وعندها حملتْ علينا الروم، فخرجتُ إليهم ومعي جرجه، وقاتلنا قتالاً شديداً، ثم أصيب جرجه، واحتُمِل شهيداً في سبيل الله، ولم يصلِّ سوى الركعتين اللتين أسلمَ عليهما.

صادق: الله أكبر... هنيئاً له، فقد فاز بالشهادة والجنَّة... يا ربّ اجعلهما من نصيبي... اللهمّ ارزقني الشهادة في سبيلك، وارزقني الجنة مع الأنبياء والشهداء والصُّلحاء والصدِّيقين والصادقين يا ربَّ العالمين.

خالد: وجاء أحد المسلمين المجاهدين إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وأرضاه، وقال له:

«إني قد عزمتُ على الشهادة، فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم، أبلِّغها له حين ألقاه؟».

صادقة: يا سلام! ما هذا الإيمان؟!.

خالد: فقال له أبو عبيدة: نعم. قل له: يا رسول الله، إنا قد وجدْنا ما وعَدَنا ربُّنا حقاً.

ثم اندفع الرجل يقاتل قتال من لا يخشى الموت، حتى استُشْهد رحمه الله رحمة واسعة، وكان هذا الشهيد وغيره آلاف مؤلفة من محبّـي الشهادة، هم الذين عنيتُهم عندما قلت للفرس ثم للروم: «لقد جئتكم برجال يحبّون الموت كما تحبّون الخمر والحياة».

صادقة: ما أعظمكم يا أصحاب الرسول القائد.

خالد: وعندما اشتدتْ وطأة الروم على المسلمين، وقف عِكْرِمَة بن أبـي جهل، وقف عكرمة البطل الصِّنْديد يهتف:

«لطالما قاتلتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قبل أن يهديني الله إلى الإسلام، أفأفرُّ من أعداء الله اليوم؟».

ثم صاح بالمسلمين:

«من يبايع على الموت؟».

فبايعه أربع مئة بطل على الموت في سبيل الله، وانطلق بهم عكرمة البطل الذي قاتل قتالاً نادراً حتى استُشهد وكثير ممن معه، بعد أن أبلَوا بلاء طيّباً، وردوا هجمة الروم على المسلمين.

صادقة: والمئة الأبطال الذين كانوا بإمرتك يا جدِّي؟

خالد: استحييتُ أن أقول لكم وأحدّثكم عنهم، لأنَّهم من خاصّة رجالي.

لقد صحتُ فيهم قبل أن أقتحم بهم الأهوال:

«والذي نفسي بيده، ما بقي مع الروم من الصبر والجَلَد إلا ما رأيتم، وإني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم».

ثم خضتُ بهم غمار أربعين ألفاً من ميسرة الروم، فزلزلناها زلزالاً شديداً.

صادق: مئة فارس يقاتلون أربعين ألفاً، وينتصرون عليهم؟

خالد: بإذن الله... فالنصر من عند الله.

صادقة: بهذا الإيمان بنصر الله كان فوزُكم يا أجدادنا العظام؟!.

خالد: اسمعوا ما كان من أمر المسلمين قبيل المعركة.

سار أبو عبيدة في المسلمين وهو يقول:

«يا عباد الله! انصروا الله ينصرْكم ويثبّتْ أقدامكم، فإنَّ وَعْدَ اللَّه حقّ... يا معشر المسلمين، اصبروا فإنَّ الصبر مَنْجاةٌ من الكفر، ومرضاة للربّ، ومَدْحَضَة للعار، فلا تبرحوا مصافَّكم، والزموا الصمت إلا من ذكر الله».

وخرج معاذ بن جبل يقول للمجاهدين:

«يا قرّاء القرآن، أنتم إن شاء الله منصورون، فأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إنّ الله مع الصابرين. واستحيوا من ربكم أن يراكم فُرّاراً من عدوكم، وأنتم في قبضته ورحمته، وليس لأحد منكم ملجأ من دونه، ولا متعزّز بغير الله».

وكان عمرو بن العاص يتنقّل بين الصفوف وهو يقول:

«أيها الناس، غضُّوا أبصاركم، واجثُوا على الرُّكَب، وأشرعوا الرماح، والزموا مراكزكم ومصافّكم، فإذا حمل عليكم عدوُّكم، فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنَّة، فثِبُوا في وجوههم وثوب الأسد، فوالذي يرضى الصدق، ويثيب عليه، ويمقت الكذب، ويعاقب عليه، ويجزي بالإحسان ـ لقد بلغني أن المسلمين يفتحونها كَفْراً كَفْراً (أي قرية قرية) وقصراً قصراً، فلا يَهُولَنَّكم جموعُهم، ولا عددُهم، فإنَّكم لو صدقتموهم الشّدّة، لقد انذعروا انذعار أولاد الحَجَلِ» (أي تطايروا تطاير أفراخ الحجل).

وكان أبو سفيان يسير بين الصفوف، ويقف عند حَمَلَة الرايات ويقول مصبّراً المجاهدين:

«... فلا والله لا ينجيكم منهم اليوم، وتبلغون رضوان الله إلا بصدق اللقاء، والصبر في المواطن المكروهة... ألا إنها سُنَّة لازمة، وإنَّ الأرض وراءكم، وليس لأحدٍ فيها معقل ولا معقول إلا الصبر، ورجاء ما وعد الله، فهو خير معوّل، فامتنعوا بسيوفكم، وتقرّبوا بها إلى خالقكم، ولتكن هي الحصون التي

تلجؤون إليها، وبها تمتنعون».

وكان يسير بين الكراديس ويهتف بالرجال:

«الله الله... إنكم ذادة العرب، وأنصار الإسلام، وإنهم ذادّة الروم، وأنصار الشرك. اللهم إنَّ هذا يومٌ من أيَّامك، اللهمّ أنزل نصرك على عبادك».

وانطلق أبو سفيان إلى النساء اللواتي وضعتُهن خلف الصفوف، وأمر بالحجارة فأُلقيت بين أيديهن، ثم قال لهنّ:

«لا يرجع إليكنّ أحد من المسلمين إلا رميتُنَّه بهذه الحجارة، وقلتنّ: من يرجوكم بعد الفرار عن الإسلام وأهله، وعن النساء بأرض العدو؟ فالله الله».

ثم رجع أبو سفيان إلى موقفه من صفوف المسلمين ونادى:

«يا معشر أهل الإسلام، حضر ما ترون، فهذا رسول الله والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم».

صادق: الله أكبر... هذا كلام أبـي سفيان يا سيِّدي؟

خالد: أجلْ يا صادق... وفعله أعظمُ من قوله.

صادق: كيف يا سيِّدي؟

خالد: لقد قاتل أبو سفيان قتال الأبطال، مع عُلُوِّ سنِّه، وقد فَقَد إحدى عينيه في هذه المعركة الهائلة، جاء سهمٌ فاستقرَّ في عين أبـي سفيان.

صادقة: والنساء؟ هل قاتلت نساء المسلمين يا جدِّي؟

خالد: طبعاً يا صادقة... قاتَلْنَ في أكثرَ من جولة... وكانت جويرية بنت أبـي سفيان تقاتل مع زوجها في هذه المعركة، وقد أُصيبت بعد قتال شديد.

صادقة: الله أكبر... نريد المزيد من هذه البطولات يا جدِّي.

خالد: وكان يزيد بن أبـي سفيان أحد القادة... كان على ربع الناس، وكان أعظم الناس بلاء، وأحسنهم غناء في الحرب. وقد مرَّ به أبوه ــ أبو سفيان ــ وهو يحرّض الناس على الصبر والقتال ويعظهم، فقال ليزيد:

«يا بنيّ! إنك تلي من أمر المسلمين طَرَفاً، وإنه ليس في هذا الوادي رجل من المسلمين إلا وهو محقوق بالقتال، فكيف بأشباهك الذين وُلُّوا أمورَ

المسلمين؟ أولئك أحقُّ الناس بالجهاد والنصيحة والصبر والتضحية، فاتَّقِ الله يا بنيّ، وأكرمه في أمرك، ولا يكوننَّ أحدٌ من أصحابك أرغبَ في الآخرة، ولا أصبرَ في الحرب، ولا أشدَّ نكايةً في المشركين، ولا أجهدَ على عدو الإسلام، ولا أحسنَ بلاءً عندهم منك».

صادق: الله أكبر... ما أروع هذا الوالد المجاهد؟

خالد: وهجم طرفٌ من الروم على عمرو بن العاص، وكان على الميمنة، فانكشف عنه أصحابه وثَبَت عمرو، فقاتلهم قتال من لا يخشى الموت، فصرخت أخته أمُّ حبيبة بنت العاص:

«قبَّح الله رجلاً يفرُّ عن حليلته (أي زوجته) وقبَّح اللَّهُ رجلاً يفرُّ عن كريمته».

وصاحت نسوةٌ من المسلمات بالرجال:

«قاتلوا، أيها المسلمون، فلستم ببعولتنا إن لم تمنعونا (أي تحمونا)».

صادقة (وهي تمسح دموعها): الله أكبر... الله أكبر...

خالد: وقاتل شرحبيل بن حسنة قتالاً شديداً وهو يتلو قول الله تعالى:

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيَقْتلون ويُقْتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومَنْ أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾.

وكان يقول:

«أين الشارون (أي البائعون) أنفسَهم ابتغاء مرضاته؟

أين المشتاقون إلى جوار الله في داره؟».

صادق (هاتفاً): لبَّيك يا جدّاه... واإسلاماه..

وأجهشتُ وأختي في البكاء، بينما تابع القائد العظيم يقول:

خالد: كان هجوم الروم على الميمنة وعلى الميسرة شديداً، فانحاز المسلمون إلى القلب، وثَبَتَ القلب بأبطاله، وكان من أبطاله: سعيد بن زيد... ولله درُّ سعيد... لقد كان أشجع من الأسد الهصور... لما نظر إلى الروم في هجومهم الصاعق، اقتحم إلى الأرض، وجثا على ركبتيه، حتى إذا دَنَوْا منه، وثَبَ

في وجوههم مثل الليث، فطعن برايته أول رجل من القوم، وأخذ يقاتل راجلاً قتال الفارس المغوار.

صادق: ودورُك يا سيِّدي في صدّ الهجوم؟

خالد: كنتُ في نصف فرسان المسلمين خلف جناحهم الأيمن، وكان البطل الهائل قيس بن هبيرة المرادي في نصفهم الآخر خلف جناحهم الأيسر، وقد بلغت هجمةُ الروم ذروتَها، وتدفَّقوا من وراء الجناحين نحو معسكر المسلمين، وفيه نساؤهم.

وزفر القائد الخالد زفرة محرقة ثم تابع يقول:

ــ كنتُ أنا وقيس وفرساننا في موقف المترقِّب... لم نقاتل بعد... كنا ننتظر الفرصة السانحة، واللحظة الحاسمة التي تتخلخل فيها صفوف الروم، فلما حانت لحظة الحسم، انقضضنا كالصواعق على جيش الروم المهاجم، وشددنا عليهم، فانكشفوا وانهزموا، وقد قتلنا عشرة آلاف من مشاتهم، فيما هرب فرسانهم نحو الصحراء، ناجين بأرواحهم، تاركين مشاتهم لسيوفنا، كذلك فعل قيس بن هبيرة، فما أبقى منهم باقية، وشدّ المسلمون جميعاً شدَّة واحدةً، وكان صوت أبـي سفيان يهدر مالئاً المعسكر:

«يا نصرَ الله اقتربْ... الثبات الثباتَ يا معشر المسلمين».

وتراجعَ جيش الروم، ونحن وراءهم نحصدهم بسيوفنا، فاقتحموا في خندقهم، فاقتحمتُه عليهم، ودفعتهم إلى (الواقوصة) حتى هوى فيها المقترنون بالسلاسل ومن كان معهم، وكانت هزيمتهم الساحقة الماحقة.

صادقة: الله أكبر... الله أكبر...

وبعد أن مسحتُ دمعاتي، وتمكَّنت من صوتي المتهدِّج، ورأيتُ سيِّدي القائد قد استراح قليلاً، سألته:

ــ كم كان عدد المتهاوين في الواقوصة يا سيِّدي القائد؟

خالد: تهافتَ في الواقوصة مئة ألف وعشرون ألفاً، كان منهم ثمانون ألفاً من المقرَّنين بالسلاسل، وأربعون ألفاً ممن لم يقيِّدوا أنفسهم. هذا عدا الآلاف

المؤلفة الذين حصدناهم أثناء القتال. . . حوالي خمسين ألفاً أيضاً.

صادقة: هل تصف لنا ميدان المعركة يا جدِّي القائد؟

خالد: كان ميدان القتال هضبة مستوية، تحيط بها ثلاثة أودية، كلُّ وادٍ منها يشكّل هاوية. . . وهي وادي الرّقاد أو الواقوصة، ووادي اليرموك، ووادي علان. والمخرج الوحيد سَدَدْناه عليهم.

صادقة: ولذلك استبشر القائد الرائع عمرو بن العاص عندما رآهم محصورين.

صادق: عندنا في الشام يسمّون الواقوصة، ياقوصة، يا سيِّدي.

خالد: بتنا ليلتنا بعد هزيمة الروم، وعندما أفقْنا في الصباح، لم نر أحداً من الروم. . . ولّوا الأدبار. . . فخرجنا نتعقَّبهم بخيولنا حتى مدينة حمص.

صادق: كم شهيداً قدَّمتم في اليرموك يا سيِّدي؟

خالد: استُشهد منا ثلاثة آلاف شهيد، رحمهم الله رحمة واسعة، تولّى أبو عبيدة دفنهم.

كان في نفسي سؤال لا أعرف كيف أسأله. . . ولكن. . . يبدو أن القائد الفذّ قرأ هذا في عينيّ، فأقبل نحوي مبتسماً وهو يقول:

ــ اسأل يا صادق ما بدا لك.

قلت على استحياء:

ــ لست أدري من أين أبدأ يا سيِّدي.

فقال القائد العظيم في ابتسامته الآسرة:

ــ تريد أن تسأل عن عزلي. . . أليس كذلك؟

ــ بلى يا سيِّدي.

ــ لا عليك. . . سأقص عليكما قصة عزلي.

واستراح القائد في جلسته، وتنحنح ثم قال:

ــ ذهب الذي ذهب، وفات الذي فات، وأفضى كلُّ واحدٍ منا إلى ما قدَّم، ولهذا، سأروي لكم بعقل بارد، ولسانٍ ما اعتاد إلا الصدق في حماسة الشباب.

فيما كنت أقود المعركة الحاسمة في اليرموك، جاء بريد الخليفة... ظننتُه من أبـي بكر فكانت الرسالة من أمير المؤمنين عمر، وفيها عزلي وتولية أبـي عبيدة قائداً عامّاً على الشام مكاني، وفيه نعيُ الخليفة الصدّيق، فترحَّمتُ على أبـي بكر الذي عزَّ مثيله بين الرجال، ودعوت لعمر بالتسديد والتوفيق، ثم ألزمتُ حامل البريد مكاناً معزولاً عن الناس، وأمرتُه ألا يبوح لأحد بما في الكتاب، فكان يبشِّر من يلقاه بمددٍ قادم من دار الخلافة. وأخفيتُ الكتاب، وكتمتُ ما فيه، واستأنفت قيادة المعركة، كأنَّ شيئاً لم يكن.

فهتفتْ صادقة:

ــ الله أكبر... ما أجلّ هذا الموقفَ منك يا جدِّي العظيم.

وتابع القائد يقول:

ــ حتى إذا انتهت المعركة، تقدَّمتُ إلى أبـي عبيدة، وأطلعتُه على الكتاب، ووضعتُ نفسي جندياً تحت إمرته.

قالت صادقة:

ــ انتصاركِ على نفسك يا جدِّي، كانتصارك العظيم على الروم!.

وقلت أنا:

ــ كلّما قرأتُ أو سمعتُ عن عزلك يا سيِّدي، تصيبني لوثةٌ من جنون... إذ كيف جاز لخليفة عادل مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن يعزل قائداً مظفراً مثلك، ويغمد سيفاً سلَّه الله على المشركين، وحقَّق انتصارات هائلة للمسلمين؟

قال سيِّدي خالد بهدوء:

ــ هكذا بدا للخليفة عمر، وهو غيرُ متَّهم عندي، إنه كان يضع مصلحة المسلمين نُصْبَ عينيه في كلّ ما يفعل، وقد حسب أن مصلحة المسلمين في عزلي، لأن في سيفي رَهَقاً، وقد أكلّفُ الجيش فوق طاقته.

وصمت القائد لحظة ثم قال:

ــ دعونا من هذا، ولننتقل إلى ما هو أحسن...

فقالت صادقة:

ــ إذن. . . نتابع الحديث عن فتوح الشام يا جدِّي.

فابتسم القائد وهو يقول:

ــ وهو كذلك.

وتنفَّس الصُّعَداء ثم قال:

ــ كتب أبو عبيدة إلى الخليفة عمر يبشِّره بالنصر الذي أحرزناه في اليرموك، وكان فيما كتب:

«إنَّا لقينا الروم وهم في جموع لم تَلْقَ العربُ مثلها جموعاً قطّ، فأَتَوْا وهم يَرَوْن أن لا غالبَ لهم من الناس أحد، فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً ما قوتل المسلمون مثله في موطن قطّ، ورزق الله المسلمين الصبر، وأنزل عليهم النصر، فقتلهم الله في كل قرية، وكل شِعْب، وكل وادٍ وجبل وسهل، وغنم المسلمون عسكرهم وما كان فيه من أموالهم ومتاعهم، ثم إني أتبعتُهم بالمسلمين حتى بلغت أقاصي بلاد الشام، وقد بعثتُ إلى أهل الشام عمَّالي، وقد بعثتُ إلى أهل إيلياء أدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا، وإلا فليؤدُّوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، فإنْ أَبوا سرتُ إليهم حتى أنزل بهم، ثم لا أزايلهم حتى يفتح الله على المسلمين إن شاء الله».

صادق: أبو عبيدة لم يذكرك ولم يقل إنك، بتخطيطك وشجاعتك وبراعتك وثقة رجالك بك يا سيِّدي، انتصر المسلمون على الروم.

خالد: لم نعتدْ هذا في مراسلاتنا. . . هذه واحدة. . . والثانية: أن النصر والأجل والرزق من عند الله، يهبها من يشاء من عباده.

صادقة: ولكنَّ للنصر رجاله وأسبابه يا جدِّي العظيم، كما أن للخذلان رجاله وأسبابه، والله الحكيم العليم لا يهب النصر لغير مستحقيه.

خالد: هذا صحيح.

صادق: هل تذكر لنا أسباب النصر وأسباب الفشل والخذلان يا سيِّدي؟

خالد: حبّاً وكرامة يا أولادي النجباء.

اسمعوا ما جرى في مجلس (هِرَقْل) ملك الروم، عندما بَلَغَتْهُ هزائم جُنْده.

لقد جمع (هرقلُ) وزراءه وقوّاده في أنطاكية، وقال لهم:
ـ وَيْلَكم أخبروني... ما هؤلاء العرب الذين تقاتلونهم؟ أليسوا بشراً مثلكم؟
قالوا: بلى.
قال هرقل: فأنتم أكثر أم هم؟
قالوا: بل نحن أكثر أضعافاً في كل موطن.
قال هرقل: ويلكم! فما بالُكم تنهزمون كلما لقيتموهم؟ اصْدُقوني!.
فسكتوا، فقام شيخ منهم فقال:
ـ أنا أخبرك أيها الملك من أين تُؤْتَوْن.
قال هرقل: أخبرني.
قال الشيخ: إنا كنا إذا حملنا عليهم صبروا، وإذا حملوا علينا لم يكذبوا.
خالد: عُدُّوا على أصابعكم أسبابَ النصر والخذلان يا صادق ويا صادقة.
(وصار القائد يعدُّ على أصابع يده اليمنى أسباب النصر، وعلى أصابع يده اليسرى أسباب الفشل والخذلان والخسران).
خالد: إذا حملنا عليهم صبروا... الصبر... واحد.
وإذا حملوا علينا صدقوا... الصدق... اثنان.
نعود إلى كلام الشيخ في مجلس هرقل... قال الشيخ الروميُّ:
ـ ومن حيث إنا نحمل عليهم فنكذب، ويحملون علينا فلا نصبر.
قال هرقل: ويلكم! فما بالكم كما تصفون، وهم كما تزعمون؟
قال الشيخ: ما أراه إلا وقد علمتَ من أين هذا.
قال هرقل: ومن أين هذا؟
قال الشيخ: من أجل أنَّ المسلمين:
يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يظلمون أحداً، ويتناصفون فيما بينهم.
ومن أجل أنّا:

نشرب الخمور، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب، ونظلم، ونأمر بسخط الله، وننهى عما يرضي الربّ، ونفسد في الأرض.

خالد: وإذا أضفنا إلى ما قاله الشيخ الروميُّ لهرقل ـ التخطيطَ السليم ـ والتدريبَ الجيد، والسلاحَ البتَّار في السواعد المفتولة، والإيمان بالله واليوم الآخر، وبقضاء الله وقدره، وعلمَ كل امرىء أنه لا يموت إلا إذا استوفى أجله، لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ـ فإن معنويات المقاتلين ستكون في الذروة، وعندئذ يتنزَّلُ نصرُ الله. . .

صادق: نعود إلى اليرموك أو ما بعد اليرموك يا سيِّدي القائد.

خالد: ذكرتُ لكم كتاب أبـي عبيدة للخليفة عمر.

صادق: ولكنك، يا سيِّدي، لم تذكر لنا جواب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

خالد: كتب عمر إلى أبـي عبيدة:

«من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبـي عبيدة بن الجراح.

سلامٌ عليك.

فإني أحمد إليك الله الذي لا إلٰه إلا هو. أما بعد:

فقد أتاني كتابك، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه من إهلاك الله المشركين، ونصره المؤمنين، وما صنع لأوليائه وأهل طاعته، فأحمد الله على حسن صنيعه إلينا، واستتمَّ اللَّهُ ذلك بشكره.

ثم اعلموا أنكم لم تظهروا على عدوّكم بعدد ولا عدَّة، ولا حولٍ ولا قوة، ولكنه بعون الله ونصره، ومنِّه وفضله، فللَّه الطَوْلُ والمنُّ والفضل العظيم، فتبارك الله أحسن الخالقين، والحمد لله ربِّ العالمين».

صادق: هذه رسالة شكر لله على نصره، وتذكير للمسلمين بأنهم إنما أُوتوا النصرَ من عند الله، وليس فيها رأيٌ حربـيٌّ لقائد ينتظر أوامر القائد الأعلى.

خالد: لا تَعْجَلْ يا صادق، فأمير المؤمنين عمر كان فذّاً بين الرجال، فذّاً بين القادة، فذّاً بين الحكام، يصرّف الأمور بما آتاه الله من مواهب وعلم وحكمة، ولا

يدع قائده أو القادة الذين بثّهم في بلاد الشام وبلاد العجم ـ لا يدعهم يتصرّفون كما يشاؤون، بل يخطّط لهم، ويأمرهم بالتنفيذ، وهذا ما كنتُ اختلف معه فيه، لأن القائد في الميدان، أقدرُ على تصريف الأمور منه... هذا رأيي... أما أبو عبيدة وسعد وسواهما فكانوا ينتظرون أوامره... ما كان الواحد منهم يخطو خطوة دون إذن سابق من أمير المؤمنين، الرجلِ العبقريِّ الذي آتاه الله ألواناً من العبقريّة، قلَّ نظيرها عند الآخرين... رضي الله عنه وأرضاه.

صادق: لكلِّ شيخ طريقة، ولكل قائد أسلوبُه... ثم ماذا يا سيِّدي عن جهادك المبرور في فتح بلاد الشام؟

خالد: انتظر أبو عبيدة حتى جاءته أوامر الخليفة بفتح دمشق، حصنِ الشام وبيت ملك الروم، أو كما قال الخليفة عمر، فأمرنا أبو عبيدة بالتوجُّه إلى دمشق، فأسرعنا إليها، وحاصرناها سبعين يوماً... كنتُ أحاصرها من جهة، وكان أبو عبيدة يحاصرها من جهة ثانية، وكانت الجهة التي أحاصرها منيعة، أمنع من جهة أبي عبيدة... قاتلْنا أهل دمشق بالزحف والمجانيق (جمع منجنيق)، وكان أهل دمشق ينتظرون المدد من هرقل، ولكن أبا عبيدة حال دون ذلك، فقد أرسل كوكبة من الفرسان قطعت الطريق بين حمص ودمشق، وهو طريق الإمدادات... أرسل هرقل إليهم إمدادات من جهة حمص، فتعرضت لها خيول المسلمين، وحالوا دون وصولها إليهم.

صادق: ودمشق؟ ماذا بعد حصاركم إياها سبعين يوماً يا سيِّدي القائد؟

خالد: كنت أتحيَّنُ الفرصة... وكانت عيوني مبثوثة تراقب كلَّ شاردة وواردة في دمشق... داخل سورها المنيع... حتى جاءتني عيوني بمعلومات تقول: إن بطريق دمشق وُلِدَ له ولد، وإنه صنع طعاماً وشراباً ودعا القادة والوجهاء والكبراء إلى الاحتفال بالمولود، وإن العساكر تركوا مواقعهم... كنتُ أعلم هذا وأكتمه، وأخطط وأفكّر لاهتبال الفرصة قبل أن تضيع.

صادق: ماذا فعلتَ يا سيِّدي القائد؟

خالد: كنتُ أَمَرْتُ بصنع سلالمَ من الحبال، وادَّخَرْتُها لهذا اليوم، فلما

أمسى المساء، نهضتُ بمن معي من رجالي الأشداء الذين كانوا معي في العراق، وبَلَوْتُهم وعرفتُ قُدُراتهم. . . تقدَّمتهم أنا والقعقاع الهائل، ومذعور بن عدي البطل الصنديد، ورجالٌ آخرون من أمثال القعقاع ومذعور، ثم قلت لرجالي الآخرين: إذا سمعتم تكبيراً على السور فارْقَوا (أي اصعدوا) إلينا، واقصدوا الباب. . .

وسكت القائد لحظة ثم تابع يقول:

ــ ألقينا الحبال على السور، فعَلِقَ فيه حبلان، تسلَّقَهما القعقاع ومذعور، وأثبتا الحبال الأخرى بالسور، فَصَعِدَ المسلمون، ثم نزلتُ وأصحابي خلف السور، أي صرت داخل المدينة، وتركتُ بذلك المكان من يحميه، وأمرتُهم بالتكبير فكبّروا، فهبَّ المسلمون إلى الحبال وإلى الباب، وقصدت الباب من الداخل طبعاً، وقتلنا الحرّاس والبوابين، وفتحتُ الباب، فتدفَّقَ منه المسلمون.

صادق: والروم؟

خالد: لمَّا رأى الروم ذلك، خفّوا إلى أبي عبيدة يريدون الصلح، فصالحهم أبو عبيدة، وهو لا يعلم أني دخلتُ دمشق عنوةً. ثم قالوا لأبي عبيدة:

«ادخلْ وامنعنا من أهل ذلك الجانب».

فأمرني أبو عبيدة بالكفّ عن القتال، وأجرى الصلح عليَّ كما أجراه على نفسه.

صادقة: يبدو لي ــ يا جدِّي القائد ــ أن جدِّي أبا عبيدة يشبه الخليفة العظيم أبا بكر الصِّدّيق في رقَّته، ونعومته، وعطفِه على الناس، وإيثاره الصلح على القتال وإسالة الدماء.

خالد: إنهما كما ذكرتِ يا صادقة.

صادق: وبعد فتح دمشق يا سيِّدي؟

خالد: سرنا نحو فِحْل، حسب أوامر الخليفة عمر. استخلفَ أبو عبيدة يزيدَ بنَ أبي سفيان على دمشق، وسرنا إلى فِحْل. كنتُ على المقدّمة، وكان الروم قد علموا بقدومنا، ففجّروا المياه، وأوحلوا الأرض، لنغرقَ فيها، فلمّا التقيناهم

وهزمناهم، وكانوا ثمانين ألف مقاتل، انتهت بهم الهزيمة إلى الوحل الذي صنعوه لنا، فركبوه، وأوحلوا، ولحقناهم، فأخذناهم وقتلناهم، فلم ينجُ منهم إلا الشريد، وقد كان الله يصنع للمسلمين وهم كارهون... كرهنا تفجير الماء والوَحَل، فكانا عوناً لنا على الروم.

صادقة: ﴿لله جنود السماوات والأرض﴾.

صادق: ﴿وما يعلم جنودَ ربِّك إلا هو﴾.

خالد: ثم سرتُ تحت راية أبي عبيدة إلى حمص، وفي الطريق، ونحن نجتاز الغوطة الغربية لدمشق، علمْنا أنَّ (توذر) القائد الروميّ، توجَّه نحو دمشق، فلحقتُ به بخيلي، فوجدناهم يقتتلون مع يزيد بن أبي سفيان، وكان قد علم بتوجههم نحو دمشق، فخرج إليهم بجيشه... فرحتُ بهذا الصَّيد الذي ساقه الله إلينا ونحن نريد حِمْص... أعْملنا سيوفنا بجيش (توذر) وأطبقنا عليهم من كلِّ جانب، وقتلتُ قائدهم (توذر) وفرَّ من تمكَّن من الإفلات من سيوفنا، وعاد (يزيدُ) إلى دمشق، وعدتُ برجالي الأبطال إلى أبي عبيدة.

صادق: الله أكبر... الله أكبر...

خالد: ثمَّ تابعنا المسير إلى حمص، وكان البرد شديداً، فتحصَّن أهلُ حمص داخل أسوارهم، وقال بعضهم لبعض: «تمسَّكُوا بمدينتكم، فإنَّ العرب حفاة، فإذا أصابهم البرد تقطَّعت أقدامهم».

صادقة: لا حول ولا قوة إلا بالله.

خالد: ولكنَّ الذي حدث، أنَّ أقدام الروم كانت تتساقط، ولم يسقط للمسلمين إصبع، ونحن نحاصرهم.

صادقة: الله رحيم بجنوده.

خالد: اسمعوا قصة استسلام أهل حمص... فهي قصة عجيبة عجيبة... لقد كبَّر المسلمين تكبيرة انهدم منها كثير من دُورِ حمص، وزُلزلتْ حيطانُهم فتصدَّعتْ.

فهتفنا أنا وصادقة بأعلى أصواتنا: الله أكبر...

خالد: ثمَّ كبَّر المسلمون تكبيرةً ثانية، فأصاب أهلَ حمص ودُورَها أكثرُ مما أصابهم في التكبيرة الأولى.

صادق وصادقة: الله أكبر... خربت خيبر.

خالد: فخرج أهل حمص يطلبون الصلح، ونحن لا نعلم بما حدث فيهم، فصالحناهم.

صادق: يعني... ما كنتم تدرون بما أحدث تكبيركم فيهم؟

خالد: أنَّى لنا أن نعلم، وهم داخل السُّور، ونحن خارج السُّور؟

صادق: تابعْ يا سيِّدي أرجوك.

خالد: ثم أرسلني أبو عبيدة إلى مدينة (قِنِّسْرِين) قرب مدينة (حلب) فلمَّا نزلنا (الحاضر) زحف إلينا الروم بقيادة قائدهم (ميناس) الذي كان يأتي في العظمة لديهم بعد هرقل، فأمكنني الله من قتله، كما قتلنا من جنوده مقتلة عظيمة، ثم ولَّوا الأدبار منهزمين منسحقين، ثم سرت إلى قنّسرين، فتحصَّن أهلها فيها، فصحتُ فيهم:

«لو كنتم في السحاب، لحملَنا اللَّهُ إليكم، أو لأَنزلَكم إلينا».

فنظروا في أمرهم، وتذكّروا ما لقي أهل حمص، فصالحونا على صلح حمص.

صادقة: وهرقل؟ أين هرقل يا جدِّي؟

خالد: كنتُ وعياض بن غَنْم قد أدربنا (أي توجَّهنا) إلى هرقل من الشام، وكان هرقل في أنطاكية، وأدربَ إليه عمرو بن مالك من الكوفة، وأدربَ إليه أيضاً عبد الله بن المُعْتَمِّ من ناحية الموصل، فخاف هرقل على نفسه، وأسرع إلى القسطنطينية، وكانت هذه أَوَّلَ مَدْرَبَةٍ في الإسلام، سنةَ خمسَ عشرةَ.

صادق: فلما بلغ أمير المؤمنين عمرَ هذا قال: «أمَّرَ خالدٌ نفسه. يرحم الله أبا بكر، فقد كان أعلمَ مني بالرجال».

صادقة: ولما غادر هرقل سورية قال: عليك السلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك روميٌّ إلا خائفاً.

صادق: لم تذكر لنا مدينة (حماة) يا سيِّدي القائد.

خالد: بعد فتح حمص، توجّهنا إلى حماة، فتلقّانا أهلها مذعنين مستسلمين، فصالحناهم على الجزية في رؤوسهم، والخراج على أرضهم، ثم مضى أبو عبيدة إلى (شَيْزَر) فكان حالُها كحال حماة.

صادق: وحلب؟

خالد: فتحناها صلحاً، وفتحنا قلعتَها عَنْوَةً.

صادق: كيف؟

خالد: بعد أن صالحنا أهل قنّسرين، بلغ ذلك أهلَ حلب، فخافوا، وكان عليهم أخَوان هما: يوقنّا ويوحنّا، وكانا يسكنان القلعة، وكان أبوهما ـ قبلهما ـ يملك حلب إلى الفرات، وكان هرقل ملك الروم يخافه ويهابه، لما يتمتَّع به من شجاعة ودهاء.

كان يوحنا يُؤْثِر السَّلامة، فنصح أخاه يوقنّا بمصالحتنا، ولكن يوقنّا رفض ذلك، وخرج إلينا بجيش من اثني عشر ألفَ مقاتل فارس.

كان أبو عبيدة قد جهّز كعب بن ضمرة ومعه ألف فارس، وسيّره إلى حلب لفتحها، فسار كعب، حتى إذا كان على بُعد ستة أميال من حلب، دَهَمَه يوقنّا، واشتعلت الحرب بينهما، وكان أبو عبيدة مشغولاً مع مشايخ حلب ورؤسائها الذين قدموا عليه في قنّسرين، طالبين منه الصلح والأمان.

صادق: لم أفهم... كيف يطلبون الصلح هنا، ويقاتلون هناك؟ هل هي مكيدة؟

خالد: يوقنّا لم يستمع لكلام أخيه، وقرّر القتال، وخرج بجيشه، أما أهل حلب فكانوا من رأي يوحنّا، وخرجوا إلى قنّسرين يطلبون الصلح بعد خروج يوقنّا، وسلكوا طريقاً غير طريقه، فصالحهم أبو عبيدة، وهو لا يدري شيئاً عن كعب وفرسانه.

صادق: ثم؟

خالد: ثم رجعوا إلى حلب، وفشا خبر الصلح في أهل حلب قبل وصولهم

إليها، حتى بلغ الخبر يوقنا وجيشه، فاضطرب جيش يوقنا، وارتد على عقبه، وتنفّس كعب وفرسانه الذين استشهد منهم مئتا مجاهد من أعيان الصحابة.

صادق: ثم.

خالد: ثم إننا قَلِقنا من انقطاع خبر كعب، فنهض أبو عبيدة بعسكره، وجعلني على المقدمة، فما كان غير قليل حتى أشرفنا على كعب، وعلمنا بما كان من يوقنّا، فأسرعنا في طلب يوقنّا، فرأيناه قد أحدق بأهل حلب، يريد قتلهم، وهو يقول لهم: «ويلكم! صالحتم العرب ونصرتموهم علينا؟».

ثم أدخل يوقنّا عبيده على أهل حلب، وصاروا يقتلونهم في بيوتهم وعلى أسرَّتهم. وأطلّ يوحنا من القلعة، ورأى القتل في أهل حلب، فعارض أخاه يوقنّا، وطلب منه أن يكفّ عبيده، ولكنّ يوقنّا أصرّ على موقفه، فأغلظ يوحنا له القول، فغضب يوقنّا عليه وقتله.

صادقة: الخبيث.

خالد: ولما سمعتُ ضجيجَ أهلِ حلب وبكاءهم، قلت لأبي عبيدة: هلك أهلُ ذمّتك. ثم حملتُ على جماعة يوقنّا بفرساني فأبدناهم، ولم ينجُ منهم إلا مَنْ لجأ إلى القلعة. ودخل المسلمون حلب من باب أنطاكية، وحفّوا حولهم بالتراس داخل الباب، وبنينا في ذلك المكان مسجداً.

صادق: ما زال هذا المسجد قائماً، واسمه مسجد شعيب يا سيِّدي.

خالد: الحمد لله...

كان يوقنّا قد تحصّن بالقلعة مع شرذمة من جنده، واستعد للحصار، ونصب المجانيق، ونشر السلاح على الأسوار، واستطاع أن يغدر بالمسلمين، فكمنتُ له مع عدد من فرساني، حتى إذا عادوا من مكمنهم في الجبل، وثبتُ عليهم، فدُهشوا وولَّوا منهزمين، ولولا سواد الليل ما نجا منهم إلا الشريد.

صادق: هل كان الكمين ليلياً؟

خالد: نعمْ... وقد اعتدنا على القتال الليلي، والمسير الليلي، والكمائن الليلية. وهكذا كانت المعارك سجالاً بيننا وبين يوقنّا، ولكننا بعد غدره

بالمسلمين، انتبهنا إلى مكائده، وسددنا عليه المسالك حول القلعة، حتى لو طار طائر لاقتنصناه.

وطال حصارنا للقلعة، حتى سئم أبو عبيدة من الحصار، وكتب إلى عمر يستأذنه في الانصراف عن قلعة حلب، ولكن أمير المؤمنين أصرَّ على فتحها، وأرسل أمداداً لفتحها، من حضرموت واليمن، وأمره أن يبثّ الخيل في السهل والوعر، والضيق والسَّعة، وأكناف الجبال والأودية، وأن يشنّ الغارة تلو الغارة، ويصالح ويسالم من يصالحه ويسالمه.

صادق: يا لطيف... ما هذا يا أهل القلعة؟!.

خالد: اسمعوا الآن قصة فتح قلعة حلب، فهي طريفة جداً.

كان رجل اسمه (دامس) من الفرسان الذين أمدّنا بهم عمر... وكان دامس هذا يكنى (أبا الأهوال) وكان أسود بصّاصاً كالنخلة العالية، إذا ركب الفرس العالي تخطُّ رجلاه بالأرض، وكان شجاعاً قوياً ذا حيلة وبراعة... (دامس) هذا، طلب من أبي عبيدة أن يؤمِّره على ثلاثين فارساً فأمَّره، ثم قال دامس لأبي عبيدة:

ـ ترحلُ أنت بجيشك على فرسخ منا، وتأمر جماعتك بقلّة الحركة، والاستتار ما استطاعوا، ويكون لك رجال ثقات يتحسّسون أخبارنا، فإذا بشَّروك بظهورنا (أي بانتصارنا) على أعدائنا، تلحق بنا إن شاء الله تعالى.

صادقة: ووافق القائد أبو عبيدة.

خالد: ونهض فوراً بجيشه، وسار مسافة فرسخ، كأنه يريد الانصراف عن قلعة حلب، وترك حصارها. ونهض دامس بجماعته حتى أتوا كهفاً في الجبل، وكمنوا فيه، ففرح الروم، وظنّوا أن المسلمين تركوا حصارهم وقتالهم، بل أرادوا مطاردة المسلمين، فنهاهم يوقنّا عن ذلك.

ولما كان الليل، عمد دامس ومن معه إلى جلود ماعز، فتخفّوا فيها، وصار من يراهم يظنّهم ماعزاً، وأخرج دامس خبزاً يابساً حمله معه، وأمر أصحابه باتّباعه، ثم سار نحو القلعة ورجاله خلفه، وأرسل رجلين من أتباعه إلى أبي عبيدة ليبعث لهم الخيل عند طلوع الفجر.

صعد دامس، ورجاله الجبل تحت جنح الظلام يمشون على أربع، وكان كلما أحسّ بشيء مريب قضم الخبز اليابس، فكأنه يقضم عظماً، وأصحابه من ورائه يَقْفُون أثره حتى لاصقوا السّور.

كان الظلام شديداً، فأتى من السُّور مكاناً قريباً قد نام حرسه، واختار سبعة من رجاله الأقوياء، وجلس القُرْفَصَاء، وأمر أحدهم أن يجلس على منكبيه، ويعتمد بقوته على الجدار، ففعل، وأمر الثاني أن يفعل مثله.

ثم لم يزل يُصْعِدُ واحداً بعد واحد إلى أن صعِد الثامن.

صادق: السابع أم الثامن يا سيِّدي؟

خالد: كانوا سبعة صعدوا عليه، وهو، فصاروا ثمانية.

صادقة: نعم يا جدِّي، وأرجوك يا أخي أن تلزم الصمت.

خالد: فأمره دامس أن يستوي قائماً، ثم أمر الذي تحته فالذي يليه، إلى أن قام دامس نفسه، فإذا الثامن قد وصل إلى الشرفة، شرفة السُّور، فتعلق بها، واستوى على السور، فوجد حارس ذلك المكان نائماً ثمِلاً، فرماه إلى أصحابه، ثم أدلى عمامته لصاحبه ونشله إليه، ثم إنَّ (دامساً) حذف إليهما حبلاً، وجعلوا ينشلون بعضهم، إلى أن تكاملوا فوق السور.

صادق: الله أكبر. . .

خالد: فاستبقاهم دامس مكانهم، وقصد بابَي القلعة، فرأى الحرس سُكارى نائمين، ففتح البابين وتركهما مردودَيْن، وعاد إلى أصحابه، وقد شارف الفجر على الطلوع، فأقام خمسة منهم على الباب، وأرسل واحداً يستعجل قدومي مع فرساني، ومشى بالباقين نحو دار يوقنّا، فصاحوا، وجاءتهم الأبطال، وصاح يوقنّا بأصحابه، فأتوا من كل جانب، وقاتلوا قتالاً شديداً، وفوجىء الروم بدخولي القلعة مع فرساني الأبطال ، فما كان من الروم إلا أن يطلبوا الأمان، وكان قد وصل أبو عبيدة.

صادقة: فأمَّنهم.

خالد: أجل أمَّنهم، وحسناً فعل، فقد أسلم يوقنّا وجماعة من سادات الروم.

صادقة: فردّ عليهم أبو عبيدة أموالهم وأهاليهم.

خالد: واستبقى الفلاحين، وأخذ عليهم العهود أنْ لا يكونوا إلا مثل أهل الصلح والجزية، وأخرجهم من القلعة.

صادق: الله أكبر... الله أكبر...

خالد: وصار دامس حديث الناس، يتحدثون عن حيله وعجائبه، وعالجْنا جراحه الكثيرة... ما كان أروعه وأشجعه وأبرعه!.

نظرتْ صادقة إلى ساعتها، ثم حَدَجَتْني بنظرة فهمتُ مغزاها، فقلت:

ــ أطلنا عليك يا سيِّدي القائد وأثقلنا، فلا تؤاخذنا بما فعلنا.

فابتسم الصحابيُّ القائد ابتسامته الساحرة الآسرة وقال:

ــ كنتُ سعيداً بهذه الذكريات التي قصصتُها عليكما، وإن شئتما البقاء إلى الليل فأنا مستعد.

ــ لا يا سيِّدي القائد... زملائي وأستاذي وأهلنا في انتظارنا.

خالد: هل نقوم ونرتحل؟

صادقة: لا يا جدِّي العظيم. لم ينته الحديث بعد.

خالد: هاتوا ما عندكم.

صادق: سوف نغادر حديث الجهاد والفتوح يا سيِّدي، فقد أرهقناك وأرهقْنا أعصابنا. نريد أن نتنقَّل بذكرياتك من زهرة إلى زهرة. فما هي الزهرة التي تراها قبل إسلامك؟

خالد (متذكِّراً): رأيت فيما يرى النائم رؤيا جميلة... رأيتُ كأني من بلاد ضيّقة جدبة، فخرجتُ إلى بلد أخضر واسع. فقلت: إنَّ هذه الرؤيا حق. فلمَّا قدمتُ المدينة مُسْلماً، ذكرتُها لأبي بكر، فقال في تأويلها: هو مَخْرَجُك الذي هداك للإسلام، والضِّيق الذي كنتَ فيه: الشرك.

صادقة: رؤيا رائعة... بشارة رائعة... وماذا تذكر من الرقائق في العراق يا جدِّي؟

خالد: قبل العراق اسمعوا ما كان معي في ليلي، ما دمنا قد ذكرنا تلك الرؤيا المبشِّرة. فقد كنتُ أرى في ليلي أهاويل تَحُول بيني وبين صلاة الليل، فذكرتُها لرسول الله صلّى الله عليه وسلم، فقال لي:

«يا خالد بن الوليد. ألا أعلِّمك كلماتٍ تقولُهُنَّ، لا تقولُهُنَّ ثلاثَ مرَّاتٍ حتى يُذْهِبَ اللَّهُ عنك ذلك؟».

قلت: بلى يا رسول الله ـ بأبـي أنت وأمي ـ فإنما شكوتُ إليك، رجاءَ هذا منك.

قال: «قل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن هَمَزات الشياطين، وأن يحضُرون».

فلبثتُ لياليَ أقولها ثلاث مرات إذا أمسيت، فانصرف عني ما كنت أراه، فذهبت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقلت له: يا رسول الله ـ بأبـي أنت وأمي ـ والذي بعثك بالحقّ، ما أتْمَمْتُ الكلمات التي علَّمتني ثلاث مرات، حتى أذهبَ اللَّهُ عني ما كنتُ أجد، ما أبالي لو دخلتُ على أسد في خيسته (أي عرِينه) بليل.

صادق: يعني... ما عدتَ تخاف في منامك؟

خالد: أجل يا صادق... فاحفظ أنت وأختك هذا الدعاء، وواظبا عليه كلما أَوَيْتُما إلى أَسِرَّتكما، وعلِّماه أبويكما وإخوتكما وأخواتكما وزملاءكما.

صادقة: نعود إلى ذكرى رقيقة من ذكرياتك في العراق يا جدِّي.

خالد: من تلك الرقائق التي تريدانها.

بعد أن انتهينا من المرتدين، وتوجَّهتُ بمن معي إلى الحيرة في العراق، ودخلناها، كان أول من تلقَّانا: الشَّيْماءُ بنت بُقَيْلة، على بغلة شهباء، وكانت مُعْتَجِرَةً (أي متلفِّفةٍ) بخمار أسود، فتعلَّقَ بها رجل من المسلمين اسمه خُرَيم بن أوس، من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وقال لي:

ـ هاجرتُ إلى النبـيّ صلّى الله عليه وسلم، وقَدِمْتُ عليه مُنْصَرَفه من (تبوك)، فأسلمتُ، فسمعتُه يقول:

«هذه الحيرة البيضاءُ قد رُفِعَتْ لي، وهذه الشَّيْماء بنت بُقَيْلَة الأزديَّةُ على بغلة شهباء مُعْتَجِرَةً بخمار أسود».

فقلت: يا رسول الله. إنْ نحن دخلنا الحيرة فوجدناها كما تصف، فهي لي؟

قال النبـيّ: «هي لك».

ثم قال خريم: يا خالد. إنها لي. هذه وصفها لي رسول الله صلّى الله عليه وسلم.

فطلبتُ منه بيّنةً تؤكد صحة دعواه. فشهد له بهذا محمَّد بن مَسْلَمَة ومحمد بن بشير الأنصاريان، فدفعتُها له.

وابتسم القائد الفذُّ الإنسان خالد، ثم قال:

ــ اسمعوا بقية الحكاية.

جاء أخو الشيماء (عبد المسيح بن بُقَيْلَة) وقال لخريم: بِعْنيها.

فقال خريم: لا أَنْقُصُها ــ والله ــ من عشر مئة.

فأعطاه عبد المسيح ألف درهم، وأخذ أخته.

فقال بعض من شاهد هذا: يا خريم، لو طلبتَ مئة ألف لدفعها إليك.

هل تدرون ماذا أجاب خريم؟

قال لهم: ما كنتُ أحسبُ أنَّ هناك عدداً أكثر من عشر مئة.

فضحكت صادقة وضحكتُ معها، حتى كدنا نستلقي على قفانا.

ثم قالت صادقة:

ــ نريد المزيد من هذه الرقائق يا جدِّي العظيم.

ــ كما تحبين يا صادقة.

على ذكر ابن بقيلة... رأيت معه كيساً قد علَّقه في حِقْوِه (أي مَعْقِد إزاره) فتناولتُ الكيس، ونثرتُ ما فيه على راحتي، وسألتُه عنه، فقال: «هذا ــ وأمانة الله ــ سُمُّ ساعة».

فسألتُه: لماذا تحمله معك؟

فأجاب: خشيتُ أن تكونوا على غير ما رأيت، وقد أتيتُ على أجلي،

والموتُ أحبُّ إليَّ من مكروه أُدخله على قومي وأهل قريتي.

فقلتِ له: إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها. باسم الله خير الأسماء. ربِّ الأرض وربِّ السماء، الذي ليس يضرّ مع اسمه داء، الرحمن الرحيم. وحاول الحاضرون منعي من ابتلاع السُّمِّ، ولكنني سبقْتُهم وابتلعْتُه.

صادق وصادقة: الله أكبر... الله أكبر...

صادقة (والدموع في عينيها): وماذا كان ردُّ ابن بُقَيْلَةَ يا سيِّدي؟

خالد: قال: والله يا معشر العرب، لتَمْلِكُنَّ ما أردْتم، ما دام منكم أحدٌ أيها القَرْن.

صادق: لم أفهم.

خالد: يعني... ما دام منكم واحد من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم.

ثم أقبل ابن بقيلة على أهل الحيرة فقال:

لم أرَ كاليوم أمراً أوضح إقبالاً.

صادقة: يا سلام... هل من مزيد يا جدِّي الصالح؟

خالد: مرَّ بـي رجلٌ معه زِقُّ خمر... فسألته عنه، فقال: فيه عسل.

فقلتُ: اللهم اجعله خَلاًّ.

فلما رجع الرجل إلى أصحابه قال لهم: جئتكم بخمر لم يشرب العرب مثله.

ثم فتحه فإذا هو خلّ.

صادق وصادقة: الله أكبر... الله أكبر...

خالد: فقال الرجل لأصحابه: أصابته ــ والله ــ دعوةُ خالد.

وفي اليرموك فقدتُ قَلَنْسَوتي، فقلتُ: اطلبوها. فطلبوها فلم يجدوها، ولكني أمرْتُهم بالبحث عنها حتى وجدوها، فاستقلُّوها عندما رأوها بالية، فقلتُ لهم:

«اعتمرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم فحلقَ رأسَه، فابتدَر الناسُ جوانبَ شَعْره، فسبقتُهم إلى ناصيته، فجعلتُها في هذه القَلَنْسُوة، فلم أَشْهَدْ قتالاً وهي معي، إلا رُزِقْتُ النُّصْرة».

صادق: هنيئاً لك يا سيِّدي هذا الحب للرسول القائد عليه السلام.

صادقة: هل تذكر لنا بعض ما تحفظ من حديث الرسول القائد يا جدِّي الصالح؟

خالد: «صلَّى رسول الله صلّى الله عليه وسلم بأصحابه، ثم جلس في طائفة منهم، فدخل رجل فقام يصلّي، فجعل يركَع ويَنْقُرُ في سجوده. فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلم: أترون هذا؟ من مات على هذا، مات على غير ملَّة محمد، يَنْقُرُ صلاتَه كما ينقر الغرابُ الدَّم. إنما مَثَلُ الذي يركع وينقر في سجوده، كالجائع لا يأكل إلا التمرة، والتمرتين، فماذا تغنيان عنه؟ فأسبغوا الوضوء، ويلٌ للأعقاب من النار. أتمُّوا الركوع والسُّجود».

صادق: بارك الله فيك يا سيِّدي يا صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وسوف أعمل بأوامر الرسول القائد بإذن الله.

خالد: وسمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول:

«أشدُّ الناس عذاباً عند الله يوم القيامة، أشدُّهم عذاباً للناس في الدنيا».

صادقة: يا ليت الجلَّادين يقرؤون هذا الحديث، ويفهمونه، ليعرفوا ما ينتظرهم من عذاب وأهوال يوم القيامة.

خالد: ثمن النصر ليس استعباد الناس، بل نشرُ لواء الفضيلة والعدل والكرامة.

صادق: كم معركةً خضتَ في حياتك يا سيِّدي القائد؟

خالد: شهدتُ في الجاهلية ثلاث معارك ضدَّ المسلمين، وشهدتُ في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلم اثنتي عشرة معركة، وشهدت في حروب الردّة ثلاث معارك، كانت أهمَّ وأخطر وأكبر معاركَ أهل الردّة، وقاتلتُ الفرس وحلفاءهم في خمس عشرة معركة، وخضتُ في طريقي من العراق إلى الشام أربع معارك، وكنت القائد لسبع معارك في بلاد الشام.

كانت صادقة تعدّ المعارك، وعندما وقف القائد عن الكلام صاحت.

ــ إذن... شهدتَ ــ يا جدِّي القائد ــ أربعاً وأربعين معركة، كانت نتائجها باهرة جداً في تاريخ الإسلام، وفي حياة العرب والمسلمين.

صادق: أسلمتَ، يا سيِّدي، سنة ثمان، وكانت وفاتك سنة إحدى وعشرين، يعني أنك شهدتَ إحدى وأربعين معركة خلال ثلاث عشرة سنة. خضتَها في الحجاز واليمن ونجد والعراق وفي بلاد الشام، وتركت آثاراً خالدة على الدهر، فقد كنت السبب في أسلمة كثير من هذه البلاد.

صادقة: وكنت في كلّ تلك المعارك، القائد الذي لا تعرف الهزيمةُ طريقَها إليه، وكنتَ كما وصفَك القائد العبقريُّ عَمْرُو بن العاص رضي الله عنه: فيك أَناةُ القطاة، ووثوبُ الأسد.

صادق: وكنتَ كما وصفك أصحابك وأعداؤك: الرجل الذي لا ينام، ولا يترك أحداً ينام.

صادقة: وكنتَ تثق برجالك، وكانوا يثقون بك، لأنهم رأوك تستأثر دونهم بالمخاطر، وتُؤْثِرُهم على نفسك بالخير والأمان.

صادق: وأحفظ من أقوالك الرائعة يا سيِّدي القائد، هذه الكلمات المقاتلة:

«ما ليلةٌ يُهدى إليّ فيها عروس،
أو أُبَشَّرُ فيها بوليد
بأحبَّ إليَّ من ليلة شديدة الجليد
في سَرِيَّةٍ من المهاجرين
أُصَبِّحُ بهم المشركين».

خالد: لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضعٌ إلا وفيه ضربةُ سيف، أو طعنة رمح، أو رمية سهم، ثم ها أنذا أموت على فراشي حَتْفَ أنفي، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

صادق: فلا نامت أعين الجبناء.

صادقة: أجل يا جدِّي العزيز، مُتَّ ولم يَمُتْ ذِكْرُك، ولن تموت آثارك، مع أنك متّ فقيراً لم تخلِّفْ إلا فرسك وسلاحك وغلامك، وقد حبسْتَ فرسَك وسلاحك في سبيل الله، وأعتقْتَ غلامك، فلم تترك شيئاً لأهلك.

صادقة: ولذلك قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عندما أدركته الوفاة:

«لو أدركتُ خالدَ بن الوليد لولَّيْتُه، فإذا قَدِمْتُ على ربّـي فسألني: مَنْ ولَّيْتَ على أمَّة محمد؟ قلت: أيْ رَبّـي. سمعتُ عبدك ونبيَّك يقول:

«خالد سيف من سيوف الله، سلَّه اللَّهُ على المشركين».

صادقة: وقال أمير المؤمنين عمر، عندما بلغته وفاتك يا جدِّي:

«يرحم الله أبا سليمان! لقد كنا نظنُّ به أموراً ما كانت».

صادق: وسمع أمير المؤمنين عمرُ أمَّك ترثيك بهذه الأبيات:

أنـتَ خيـرٌ مـن ألـف ألـفٍ مـن القـوم إذا مـا كَبَـتْ وجـوهُ الـرجـال
أشجـاعٌ؟ فـأنـتَ أشجـعُ مِـنْ ليـثٍ غضنفـرٍ يـذودُ عـن أشبـال
أجـوادٌ؟ فـأنـت أجـود مـن سيـلٍ غـامـرٍ يسيـل بيـن الجبـال

فقال أمير المؤمنين عمر:

«صَدَقَتْ... والله إنْ كان لكذلك».

صادقة: وقال أمير المؤمنين عمر، مودِّعاً إياك يا جدِّي:

«رحم الله أبا سليمان
ما عند الله خيرٌ مما كان فيه
ولقد عاش حميداً
ومات سعيداً».

صادق: وقال أمير المؤمنين عمر:

«ما على نساء آل الوليد أن يَسْفَحْنَ على خالد دموعهنّ».

صادقة: وقال أمير المؤمنين عمر، عندما انتهى إليه نبأ وفاتك يا جدِّي:

«لقد ثلم الإسلام ثلَّمة لا تُرْتَق، كان والله سدّاداً لنحور العدوّ، ميمونَ النقيبة».

خالد: كنتُ قد وجدتُ على أمير المؤمنين عمر في نفسي، في أمورٍ لما تدبَّرتُها في مرضي هذا، وحضرني من الله حاضر، عرفتُ أنَّ عمرَ كان يريد الله بكلِّ ما فعل. رحم الله عمر، فقد كان أميراً وَقَذَتْه العبادة، وأطارَ النومَ من عينيه خوفُه من الله.

• • •

المصادر والمراجع

١ ـ الكامل في التاريخ ـ الجزء الثاني: لابن الأثير.

٢ ـ الأعلام: للزركلي.

٣ ـ قادة فتح الشام ومصر: محمود شيت خطاب.

٤ ـ قادة فتح العراق والجزيرة: محمود شيت خطاب.

٥ ـ الطريق إلى المدائن: أحمد عادل كمال.

٦ ـ الطريق إلى دمشق: أحمد عادل كمال.

٧ ـ حياة الصحابة: محمد يوسف الكاندهلوي.

٨ ـ صفة الصفوة: لابن الجوزي.

٩ ـ الحلية: لأبي نعيم.

١٠ـ رجال حول الرسول: خالد محمد خالد.

١١ـ المسند الجامع ـ الجزء الخامس: د. بشار عواد وزملاؤه.

١٢ـ نهر الذهب في تاريخ حلب ـ الجزء الثالث: كامل الغزي.

١٣ـ معجم البلدان: ياقوت الحموي.

١٤ـ حلب: عبدالفتاح قلعه جي.

• • •

